ملف التغيير



تأليف

دكتور

أشرف عبد المنعم



تأليف

فضيلة الشيخ

الدكتور

أشرف عبد المنعم



إصدارات الجبهة السلفية

الفهرس

مقدمة

ما مكانة قضية تغيير الواقع في رسالة الإسلام؟

ألا يمكن الاكتفاء بهدف الصلاح الفردي كهدف شرعي؟

لماذا لا يجوز أن نتنازل عن أهدافنا الكبرىٰ في ظل الاستضعاف؟

هل تغييب قضية التغيير .. حكمة مشروعة .. أم تراجع وتحريف؟

كيف ننزل قضية التغيير إلىٰ واقعنا المعاصر المليء بالضعف والإشكالات والتساؤلات؟

إنه كلما ارتفع غبار المعركة، وعلت أصوات الباطل، وروت دماء الشهداء آمال أمتنا .. كلما تكررت هذه الأسئلة وأشباهها .. من حائر يطلب الهداية .. ومن مخذل يدعو للاستسلام.

ولما كانت أمتنا تعيش مرحلة فاصلة في تاريخها، بحيث تتم إعادة رسم الخريطة داخليا وخارجيا.. فإن الحاجة لإحياء هذا الملف، وتجديد قضاياه، وزيادة تفاصيله .. تزداد إلحاحا يوما بعد يوم.

لهذا جاء "ملف التغيير" .. خطوة علىٰ طريق التغيير.


الإسلام رسالة تغييرية

الإسلام رسالة تغييرية

الحمد لله الذي بعث رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد المبعوث بالسيف بين يدي الساعة حتىٰ يعبد الله وحده[1]، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم يحمل رسالتهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين.

منشأ المشكلة

إن أمتنا قد تعرضت للتيه زمنا طويلا، ثم هي تحاول الآن أن تستعيد وجودها الرسالي، الذي ترث فيه نبيها ﷺ كأمة رائدة للحياة الإنسانية، ولهذا تنحاز الجماهير المسلمة لمن يرفعون راية الإسلام، متجاوزة بذلك الانحياز عقودا من التضليل والاستبداد العلماني ..

عند هذه اللحظات التاريخية تصفىٰ الصفوف مع تصفية النفوس، ويتمايز المتقدمون بالإسلام.

1- حسن: رواه أحمد (4964) عن عبدالله بن عمر ﵄ ، وحسنه الألباني في المشكاة (4347).

إذ ليس الكل يحمل رسالة التغيير بالإسلام .. بل إن هناك من ألفوا الوجود مع الباطل وتحته، حتىٰ صارت أعلىٰ أمنياتهم .. مشاركته .. لا تغييره.

معالم الرسالة .. منطلق الحل

في مثل هذه اللحظات الفارقة، تتأكد أهمية إبراز معالم ر سالة النبي ﷺ لأنه كان الوجود المثالي للرسالة وللدين، وكل وجود صحيح بعد ذلك يكتسب صحته بمقدار اقترابه من هذا النموذج المثالي، ويفقد من الصــحة بمقدار ما يبتعد عن النموذج الذي طبقه النبي ﷺ.

فإن ربنا ﷻ لم ينزل لنا كتاباً وفقط، لأنه لو كان كتاباً وفقط لأمكن للأفهام أن تتفاوت في تفســيره بما قد يخرجه عن مقصــوده، لكنه أرســل لنا رســولا يحمل الكتاب، ليكون الكتاب هو الوحي المحفوظ لهذا الدين، وليكون الرســول ﷺ هو التطبيق العملي الذي يفسر ويضبط المعاني التي جاءت في الكتاب. ومن ههنا كانت الـسنة هي الوحي الثاني، وا ستدل العلماء علىٰ حفظ الـسنة بآية حفظ الكتاب: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1] فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ تعني حفظ الألفاظ وحفظ المعاني، فحفظ الألفاظ ببقاء الكتاب، وحفظ المعاني بحفظ الـسنة. باعتبار أن كثيرا من البيان إنما حُفِظ بالســنة، فكان من تمام حفظ الكتاب حفظ

1- [الحجر – 9].

السنة، باعتبارها جزءا من الوعد الرباني بحفظ الكتاب.. وهذا هو المنطلق الصحيح لفهم الدين.

حيثيات البعثة .. مفتاح الفهم

ولنبدأ القصة من البداية، ففي صحيح مُسلم من حديث عِياض بن حمار ﵁ في حديث طويل للنبي ﷺ ذكر فيه ما كان قبل بعثته، وذكر فيه حيثيات هذه البعثة.. قال النبي ﷺ : «إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»[1] و هذا قبل البعثة .. نظر الله إلىٰ أهل الأرض – هو لا يخفىٰ عليه شيء من حالهم – فمقتهم، لأنهم لم يُقيموا الإيمان و التوحيد ... لم يُقيموا العدل ... لم يقيموا الرحمة ... لم يقيموا الإحسان ... لم يقيموا الطهارة التي يحبها الله ﷻ في عباده، ولذلك استحقوا أن مقتهم عربهم وعجمهم.

ثم قال ﷺ : «إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ».. والتساؤل هنا: لماذا لم يمقت الله ﷿ بقايا أهل الكتاب؟.. لا بد أن أسباب المقت لم توجد فيهم، فهم قد ظلوا علىٰ أصل التوحيد والإيمان، لم يُبدلوه، فحافظوا علىٰ بقية دينهم ولم ينحرفوا عنه، ولذلك لم يمقتهم الله ﷻ عندما مقت بقية أهل الأرض.

---

1 – مسلم (5218) عن عياض بن حمار المجاشعي ﵁.

أين ذهبت البقايا المؤمنة؟

لكن الشـيء العجيب حقا .. هو أن الله ﷻ مع أنه لم يمقتهم .. إلا أنه قد استبدل بهم غيرهم .. فبعث النبي ﷺ يجدد ملة إبراهيم ﵇ ويرفع شعار التوحيد، ويقيم الدين، ويخرج أمة الإسلام .. بل صارت نجاة من بقي من البقايا .. أن يكون تابعـًا للنبي ﷺ الذي قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْـمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[1].

والأمر عجيب .. ألم يكن منهم مؤمنون؟.. ألم يكن وجودهم سابقـًا؟.. لماذا لم يكونوا هم المتبوعين؟.. ولماذا كانت هناك حاجة إلىٰ رسـالة جديدة، تصـير نجاتهم أن يكونوا لها تابعين.. فيكونون بذلك امتداداً لغيرهم ولا يكون غيرهم امتداداً لهم من هذه الجهة؟!..

سبب الاستبدال

السـبب هو أنهم لم يكونوا قادرين علىٰ التغيير.. ولم يحملوا رسـالة تغييرية.. بل كانوا كما قال الحبيب ﷺ : «بقايا».. وهذه اللفظة تشعرك أن هناك شيئا ينتهي، وهذه آخر البقايا .. قبل النهاية..

1- مسلم (244) عن أبي هريرة ﵁.

يشهد لذلك ما جاء في قصة إسلام سلمان الفارسي ﷺ فإنه لما لقي واحدا من هؤلاء البقايا، وكاد أن يموت، قال: "إلىٰ من توصـي بي؟" فدله علىٰ ثانٍ، فلما كاد أن يموت، قال: "إلىٰ من توصـي بي؟" فدله علىٰ ثالث، فلما كاد أن يموت، قال: "إلىٰ من توصـي بي؟" فدله علىٰ رابع، فلما كاد أن يموت، قال: "إلىٰ من توصـي بي؟" فقال له: "والله ما أعلمه أصبح علىٰ ما كنا عليه أحد من الناس" وأخبره بقرب بعثة النبي ﷺ وحثه علىٰ طلب أرضه التي يهاجر إليها ليكون من أوليائه و أنصاره[1].. وهذا وصف البقايا ... فالبقايا كان عندهم بقية من إيمان، لكنهم لم يكونوا يملكون قوة التغيير.

البعثة .. برسالة تغييرية

ولا أعني بقوة التغيير هنا القوة المادية، لأن النبي ﷺ عندما بُعث لم تكن عنده القوة المادية ... لكنه كان يملك القوة النفسـية و روح التغيير ... وهذه الروح هي التي بعث بها النبي ﷺ لذلك نجد في الحديث نفسه قول الله للنبي ﷺ : «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ أَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ»[2] .. فأنت سـوف تكون في اختبار حينما تريد تغيير الناس، والناس يرفضون التغيير. وهم أيضـًا يمتحنون، بما تحدثه في حياتهم من تغيير.

1- حسن: رواه أحمد (23788) عن سلمان ﷺ، وحسنه الأنؤوط في تحقيقه.

2- مسلم (5218) وقد سبق.

بل ورد في الحديث ذكر لأعنف وأعلىٰ صـور التغيير حين قال ﷺ «وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًـا»[1].. فهذه الألفاظ غاية في القوة.. وهي تفيد تغييرا كاملا لواقع فاسد، وتنشئ بدلا عنه واقعـًا جديداً صالحـًا..

من يؤدي المهمة الصعبة؟

ولما لم تكن المهمة سـهلة، نجد أن النبي ﷺ يحكي اسـتعظامه لهذه المهمة: «فَقُلْتُ : رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِـي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً»[2] .. أي: كيف أغير قريشـا هذه كلها وحدي؟! كيف أقدر علىٰ هدم كل هذا الباطل، وأبني مكانه صـرح الحق من جديد؟!.. فأمره الله ﷻ أن يكون له علىٰ التغيير أعوان، فالتغيير ليس مهمة النبي ﷺ وحده، بل هو مهمته.. ومهمة أتباعه، ولذلك قال الله له في الحديث: «قَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ»[3].. فهذا التغيير الشامل لن تفعله وحدك، إنما المؤمنون الذين يطيعونك سـيكونون معك، حربـًا في هذا التغيير علىٰ من عصـاك. ووعده الله ﷻ بالمدد فقال: «وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ وَأَنْفِقْ فَسَـنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًـا نَبْعَثْ خَمْسَـةً مِثْلَهُ»[4].

1- السابق.

2- السابق.

3- السابق.

4- السابق.

المقارنة الكاشفة للتميز بالتغيير

إن من يريد فهم هذا المعنىٰ الذي نقرره، عليه أن يتأمل الحديث الشــريف، حديث نزول الوحي علىٰ النبي ﷺ أول مرة .. هل عرف الوحي أم أنكره؟.. هل اطمأن إليه أم خاف منه؟.. حين ذهبت به خديجة ﵂ إلىٰ ورقة بن نوفل، ألم يكن عند ورقة بن نوفل في هذه اللحظة من العلم ما لم يكن عند النبي ﷺ ولذلك قال له: «هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ»[1]؟..

ففي هذه اللحظة عرف ور قة الأمر، والنبي ﷺ لم يعرف .. و ور قة اطمأن وا ستبشر، بينما كان النبي ﷺ خائفـًا .. بل وعرف ورقة بقية الطريق «قال: يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُــولُ الله ﷺ : "أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ"، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا»[2]..

وهنا سؤال مهم: ألم يكن عند ورقة بن نوفل مثل ما جاء به النبي ﷺ وكان من البقايا المؤمنة؟!.. فلماذا لم يعاد أهل مكة ورقة بن نوفل، وقد عاش في مكة حينا من الزمن، وهم يعلمون أنه مخالف لدينهم، مع ما عنده من العلم والإيمان، لدرجة أنه ثبت النبي ﷺ و بشره؟! ...

1- متفق عليه، البخاري (3) ومسلم (257) عن عائشة ﵂ أم المؤمنين.

2- السابق.

السبب أنه لم يكن يمثل حركة تغييرية في مكة، إنما كان إنسانـًا له خياراته التي يعيش بها. و ورقة قد عرف أنه بقية من البقايا، وأن الدور التغييري الكبير الذي سـيفعله النبي ﷺ هو مثل الدور الكبير الذي قام به موسـىٰ عليه السلام مع بني إسـرائيل بالبناء، ومع فرعون الذي مثل رمز الطاغوتية المضادة بالهدم، ولهذا شبهه به.

بل إن مما يجدر ذكره، أن هذا التشبيه ليس موجوداً عندنا في الوحي فحسب، بل هو موجود أيضـا في بشـارات أهل الكتاب، فنجد فيها تشـبيه النبي ﷺ بموسـىٰ عليه السلام وأنه يخرج لبني إسرائيل من بني عمومتهم، من يصنع كما صنع موسىٰ عليه السلام. ولا تصدق هذه النبوءة إلا علىٰ سيدنا محمد ﷺ الذي خرج من بني عمومتهم بني إسـماعيل، وأحدث تغييراً هائلاً في حياة الجماعة البشـرية، كالذي أحدثه موسـىٰ عليه السلام.

أما ورقة بن نوفل فإنه لم يُواجه العداوة مع إيمانه وعلمه بالحق، لأنه لم يكن تغييريـًا، لم يعمل علىٰ إحراق باطل قريش. لكنه عرف أن النبي ﷺ سـيقود حركة تغييرية في المجتمع المكي وفي هذا الوجود الإنساني، ولذلك سيعادىٰ وسيخرج.

الوجود الصحيح

ومثل ورقة الوجود الصــحيح للبقايا حين قال: «وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُــرْكَ نَصْــرًا مُؤَزَّرًا»[1].. فأكون تابعـًا لك، ناصــراً لأمرك، فهذا هو الدور الذي بقي لهم ليؤدوه في الحياة. أما الدور الذي تميز به النبي ﷺ وكان جوهراً لرســالته، فهو تغيير الحياة الإنســانية، ولأجل هذا كانت الدعوة، وكان الجهاد، وكان التغيير في كل مناحي الحياة. بل قد كانت حياته ﷺ كلها جهاداً ودفعـًا وتغييراً، وا ستمر هذا الأداء الرسالي إلىٰ أن قبض النبي ﷺ.

والوجود الصــحيح للأ مة هو ا لذي يكون امتداداً لوجود النبي ﷺ. لذ لك يحفظ الوجود الصــحيح للأمة بالطائفة الظاهرة علىٰ الحق المنصــورة، حتىٰ إن الإمام النووي في شــرحه لصــحيح مســلم لما ذكر حديث الطائفة، قال: "فيه دليل لكون الاجماع حجة وهو أصــح ما اســتدل به له من الحديث"[2].. لأنه إذا حصــل الإجماع، فمن المؤكد أن الطائفة المنصورة مع من أجمع، وهي ظاهرة علىٰ الحق، فيكون هذا الذي أجمع عليه هو الحق. فهم الامتداد العظيم للنبي ﷺ ولرســالته في الأمة.

1- السابق.

2- شرح النووي علىٰ مسلم (13/ 69) ط.دار المعرفة (بيروت) الخامسة 1419هـ ـ 1998م.

طائفة .. تحمل الرسالة التغييرية

وإذا رأينا أحاديث الطائفة المنصـورة، نجد فيها معاني الرسـالة التغييرية، فمن ذلك:

أولا: ربط دور الطائفة بالفقه في الدين، ففي إحدىٰ الروايات عن النبي ﷺ في أحاديث الطائفة: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَلَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَىٰ مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1].. فإذا تساءلنا عن سر الربط بين دور الطائفة وبين الفقه في الدين؟.. كان الجواب أن الفقه في الدين أخص من مجرد حمل الدين، أو معرفته، أو نقله، ففي فقهه مزيد خصوصية في فهمه، وهذا الفهم يشمل ابتداء فهم دوره التغييري بشكل سليم. ولذلك فرق النبي ﷺ بين الناقل وبين الفاقه، فلما حث علىٰ البلاغ وهو مطلق النقل، قال: «فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»[2].. فالطائفة تمتاز بفقه الدين، فهي تفهم الدور الرسالي للأمة المسلمة المؤتمنة علىٰ هذا الدين في الأرض.

ثانيا: انعكاس ذلك الفهم علىٰ ممارستها التغييرية، فهي ظاهرة علىٰ الحق، معلنة له، تتحمل وتتكبد تكاليف إقامة الحق وحفظه، بل هي تقاتل علىٰ الحق، كما

1- مسلم (3641) عن معاوية ﷺ.

2- صحيح: رواه أحمد (21066) عن زيد بن ثابت ﷺ، وصححه الألباني في المشكاة (229).

في روا يات كثيرة من الأ حاد يث: «يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ الْحَقِّ»[1] وفي لفظ آخر: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَىٰ مَنْ نَاوَأَهُمْ، حَتَّىٰ يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ»[2] .. فهذه الطائفة تمثل العصمة للأمة.. لقربها من النموذج النبوي في فهم الدين، وأداء دوره الرسالي، بإظهار الحق وتغيير الحياة علىٰ مقتضىٰ هذا الحق، ويستمرون في ذلك إلىٰ آخر الزمان.

أما عن خصو صية ذكر الدجال، فلأن فتنة الدجال كما قال النبي ﷺ: «والله مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَعْظَمُ مِنْ الدَّجَّالِ»[3] وقال: «إِنَّ اللهَ -تعالىٰ- لم يَبْعَثْ نبيًّا إلا حَذَّرَ أُمَّتَه الدَّجَّالَ، وأنا آخِرُ الأنبياءِ ، وأنتم آخِرُ الأُمَمِ، وهو خارجٌ فيكم لا مَحا لَةَ»[4] والنبي ﷺ أخبر عن أثره علىٰ الناس فقال: «لَيَفِرَّنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَّالِ فِي الْجِبَالِ»[5] .. لكن الطائفة تجتمع لقتال الدجال، فهي لا تجتمع للفرار من الدجال، ولا للمحافظة علىٰ دينها وفقط، بل لقتاله، لأنها امتداد للدور الر سالي الذي قام به النبي ﷺ أول مرة.

1- مسلم ، وقد سبق قريبا.

2- صحيح: رواه أبو داود (2138) ، و أحمد (19484) عن عمران بن حصين ؓ ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (2484).

3- صحيح: رواه أحمد (16299) عن هشام بن عامر ؓ ، وصححه الأناؤوط في تحقيقه.

4- صحيح: المستدرك (8704) عن صدىٰ بن عجلان ؓ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (7875).

5- مسلم (5350) عن أم شريك ؓ.

وبينما هم مجتمعون لقتال الدجال، وأقاموا الصلاة ليصلي بهم إمامهم، ينزل عليهم عيسى عليه السلام ويقودهم، ويقتل الله على يده الدجال[1]. ولكن هل تأملتم على من نزل عيسى عليه السلام ؟!.. إنه لم ينزل على هؤلاء الذين فروا يطلبون النجاة بإيمانهم، مع علو ما قاموا به من خير، لكنه نزل على المجتمعين لقتال الدجال. وتأملوا هذا الفقه للدين .. إنهم يعلمون أن الدجال لن يُقتل حتى نزول عيسى عليه السلام فإنه لا يقتل الدجال إلا عيسى، فالمنتظر أنهم يجلسون وينتظرون نزول عيسى عليه السلام ... لكنهم فقهوا أن من قعد .. لا ينزل عليه النصر .. إنما يتنزل النصر على من تجهز للقتال.. وسار في الطريق .. لا على من نأى في الجبال .. ولا على من جلس ينتظر الوعود، من غير أن يعد لها عدتها. إن هؤلاء هم الطائفة الظاهرة، وهم الامتداد الصحيح للنبي ﷺ .

و لذلك لما ذكر العلماء خاصية هذه الأمة، والتي حازت بها الشرف في الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2] وقفوا هنا .. لم قدم الأمر و النهي عن الإيمان؟!.. مع أن الإيمان هو الأصل لكل خير، والإيمان هو الأعظم بالقياس إلى كل خير، فلماذا أخر ذكره ههنا؟!.. لأنه قد يوجد إنسان عنده أصل الإيمان، لكنه لا يتم له إيمانه الذي يجعله يحمل روح الإسلام التغييرية، فيقصر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا

1- مسلم (5339) عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

2- [آل عمران – 110].

يخسر من الخيرية بقدر ما قصر في الأمر والنهي. كالبقايا .. كان عندهم بقية إيمان، لكنهم لم يكونوا آمرين بالمعروف ولا ناهين عن المنكر، فامتازت هذه الأمة وكانت خاصية رسالتها الكبرىٰ، أنها أمة ترث دور نبيها ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للناس جميعًا.

فهذه الرسالة، و هذه الروح، هي حقيقة بعثة النبي ﷺ وهي حقيقة دين الإسلام، وهي حقيقة الوجود الإيماني الذي يمتد آخر الزمان. فإذا وصلنا إلىٰ آخر الزمان، وتناقص الإيمان، وما بقيت هناك قوة علىٰ ذلك التغيير، إنما بقيت من هذه الأمة .. بقايا مؤمنة ضعيفة .. فيبعث الله ﷻ عليهم ريحًا طيبة تقبض كل نفس مؤمنة. فيبقىٰ في الأرض شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة، لأن الدنيا حينها تكون قد فقدت دورها .. "إنما بعثتك لأبتليك و أبتلي بك"[1] .. فإذا غاب الوجود الإيماني الرسالي التغييري، و غاب المؤمنون، فلا بد أن تغيب الدنيا، وتنتهي الامتحانات، ويبدأ الجزاء الأخروي بعد ذلك.

ثالثا: حالهم مع الناس وحال الناس معهم، فقد وصف النبي ﷺ تلك الحال فقال: «لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ»[2].. أما لماذا يخذلهم خاذل ويخالفهم مخالف؟.. فلأنهم يتحملون الأمر

1- مسلم، وقد سبق.

2- مسلم (1037) عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

الثقيل: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا»[1].. إنهم يحملون وراثة: «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ».. إنهم يحملون رسـالة تغييرية للحياة، وليسـت رسـالة توافقية مع الحياة، ولذلك يكثر مخالفوهم: « لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ»[2].

أما من غير وانحرف، فقد خرج بانحرافه عن العداء، بقدر ما خرج عن الصـراط المسـتقيم. بل إن كثيراً من هؤلاء المنحرفين كانوا يفاخرون بحسـن علاقتهم بمن يجب عليهم شرعـاً أن يعادوهم ..!! فخرجوا بذلك عن خط العداء.. عن خط الاسـتقامة .. عن خط التغيير .. عن خط النبي ﷺ الذي اختطه لهذه الأمة إلىٰ آخر الزمان .. عن الخط الذي به يحفظ الدين، وبه تحفظ الأمة، وحين يغيب.. توشـك شـمس هذه الأمة أن تغيب .. بل توشـك شـمس الحياة الإنسـانية كلها أن تغيب.

بين خاذل .. ومخالف

فلماذا إذن ذكر رسـول الله ﷺ الخاذل قبل المخالف: « خذلهم أو خالفهم»..؟؟

لأن الخاذل يحدث من النكاية في القلب أشـنع مما يحدث المخالف، فالمخالف يعاديك، يقول لك: أنت مخطئ. فهناك انفصال بينكما منذ البداية. لكن

1- [المزمل – 5].

2- متفق عليه، وقد سبق.

الخاذل يقول لك: ما أحسن هذا الكلام.. وما أجمل هذه الحياة .. لكن لك أنت.. وليس لي أنا .. هذا عمل عظيم .. لكن قم أنت به .. وادفع أنت ثمنه .. وحدك... أنا لن أ سير معك في هذا الطريق .. أنا لن أتحمل شيئًا من تكاليف هذا التغيير.. أنا لا أريد أن أخاطر بشيء من مكتسباتي ومعاشي الدنيوي.

إذاً ما أكثر الخاذلين، الذين كنت تنتظر أن يكونوا لك ناصرين، لأنهم في الأصل موافقون، وليسوا مخالفين، لكنهم إذا حان وقت النصرة .. خذلوا.. وتركوا.. وباعوا .. لتدفع الطائفة الظاهرة على الحق الثمن وحدها، وتستحق بذلك الشرف والمنزلة وحدها، بأن تكون ذلك الامتداد الكريم للنبي ﷺ في هذه الأمة، بل وفي الناس، بحملها راية الإسلام، وحقائق الدين، وروح التغيير للحياة الإنسانية، لتكون على مقتضى إرادة الله ﷻ وشرعه الذي يحبه لخلقه أجمعين.

إن حقيقة الر سالة التغييرية للإ سلام، وحقيقة تفاوت الناس في فقهها والعمل بمقت ضاها، حقيقة أولية سيظل الناس يفترقون ويختلفون بـ سببها، فيظل من الناس وراث للنبي ﷺ أتباع للطائفة الظاهرة، أو أئمة فيها .. ويظل من الناس خاذلٌ.. وخاذلٌ .. وخاذل، ويظل من الناس مخالفٌ .. ومخالفٌ.. ومخالف.

خطورة غياب الرسالة التغييرية

وتزداد قيمة وعي هذا الدور الرسالي للنبي ﷺ ولأمته من بعده، إذا استحضرنا خطورة غياب الدور الرسالي التغييري للإسلام، في ظل معركة قدرية مفروضة:

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[1].. معركة لا يترك فيها العدو بابا يمكن أن يدخل منه إلا ودخل: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾[2].. معركة ترى فيها: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[3].

الدين .. بين الصد والتحريف

إن سبيل أعداء الدين مع الدين ليست دائمًا سبيلاً واحدة، لكن لهم مسالك مختلفة، والله ﷻ ذكر لنا ذلك في القرآن، فقال عنهم أنهم: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[4].. فالصد شيء، وابتغاؤها عوجًا شيءٌ آخر.

فهم ابتداءً يصدون عن سبيل الله، فلا يريدون لأحد أن يدخل سبيل الله، ولا يريدون لأحد أن يتمثل وراثة النبي ﷺ إنهم لا يريدون من الناس أن يسيروا في هذا الطريق ابتداءً، حتى إنه في بداية التسعينات كانت هناك خطة لمقاومة التدين في مصر، وكانوا يسمونها خطة تجفيف المنابع، وهذه تسميتهم وهدفها واضح من اسمها، وهو ألا تنبت الأرض بعد ذلك حركة إسلامية أبداً. فيأبى الله ولا تجف المنابع بفضل الله، فالله يهدي من يشاء، وليس بيد أحد من البشر أن يمنع هذه

1- [محمد – 4].

2- [الأعراف – 17].

3- [الأنعام – 112].

4- [الأعراف – 45] و [هود – 19].

الهداية الربانية، مصـداقـًا لقول النبي ﷺ : «لا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ»[1].. فهي خير أمة، يهدي الله فيها قلوبا، ويصلح فيها رجالا، ويحدث بهم تغييرا.

فإذا شعروا أنهم لا يقدرون على منع الطوفان، حاولوا أن يحرفوه عن مساره، ليصب في صالحهم، بعد أن كان في طريقه ليقتلعهم. فهم: ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[2].. أي: يريدونها عوجـًا. وأي شيء هذا الذي يطلبون أن يكون معوجـًا .. إن الضمير يعود على سبيل الله، فإن كان لا بد أن يكون هناك سبيل لله، فليكن ذلك، ولكن لتكن تلك السبيل معوجة، لكي نقبلها بيننا.

---

1 – حسن: رواه ابن ماجه (8) في مقدمة سننه ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ، وأحمد (17478) عن أبي عنبة الخولاني ﷺ ، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (8).

2 – سبقت قريبا.

من أشنع صور التحريف المعاصرة

ويبقىٰ السؤال: كيف يبغونها عوجـًا؟!.. إن من أ شنع ما بغوه من العوج خلال العقدين السـابقين.. هو نزع الروح التغييرية من التدين، ومن مفهوم الإسـلام عند أهله، فالناس تنتمي للإسـلام انتماءً مسـالمـًا لأعدائه .. متعايشـًا مع مختلف الظروف .. شـخصـيـًا بدرجة كبيرة .. يصـلح الإنسـان فيه في خاصـة نفسـه بعض الـ صلاح، لكنه أبداً لا يكون اهتداءً لنفـ سه و للناس .. إنه أبداً لا يقاتل علىٰ الدين.. إنه أبداً لا يكون تغييريـًا في هذه الحياة .. فهو متعايش مع كل صـور الباطل والظلم والفساد والانحراف الموجودة .. إنه يعيش بجوارها دون المدافعة الواجبة شرعا.

قد يسأل سائل: وهل كان الكل إلا متعايشـًا بجوارها، لأنه لا يملك دفعها؟!..

والجواب في تفريق الـ شرع، حين فرق بين أن تكون ممتلئـًا غيظـًا علىٰ الباطل، ممتلئـًا رغبة في إزالته، وأنت لا تقدر، وبين أن تكون مطمئن النفس، هادئ البال، وأنت تعيش بجواره، فهذا هو التعايش المذموم، وهذا هو العوج والتدين المشـوه. فهو تدين يكون عونـًا للباطل، ولو بالسـكوت والتزيين، ولا يكون عونـًا للمظلوم، ولا يكون نصـرةً للحق، ولا يكون أمراً بالمعروف ونهيـًا عن المنكر، وتغييراً لحياة الناس، ووراثةً للنبي ﷺ .

الفارق أثبته النبي ﷺ حين قال: «فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَـانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ

خَرْدَلٍ»[1] وفي رواية أخرىٰ: «وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[2].. فهناك إذاً حد فارق بين من لم يتكلم لكنه رافض، فرفضه هذا جهاد وتغيير، وعلامة صدق قلبه الرافض أنه إذا استطاع أن يتكلم فسيتكلم، وإن استطاع أن يغير فسيغير، وأنه ليس مطمئناً، ولا راكناً إلىٰ مكاسب الحياة في ظل هذا الوضع الباطل.

أما الذي لا ينكر بقلبه، فهذا لم يبق شيء من الإيمان ليعمله في ظل ما امتحن به، من هذا القدر الرباني، فالإيمان الذي كان مطالباً به هنا هو الإنكار والتغيير، فلما زال إنكار القلب، زال مقابله من الإيمان في نفس الإنسان، وعلامة ذلك أنه يتبدىٰ ركونه للباطل، ولو في فلتات لسان .. يتبدىٰ ولو في مواقف عارضة. فإن الناس يفرقون بين الساكت مع الغيظ، وبين الراكن والمتواطئ، وكل إنسانٍ يفرق بين هذه الحال وبين الحال الأخرىٰ من نفسه.

1- مسلم (96) عن عبدالله بن مسعود ﷺ.

2- مسلم (95) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

إنه الطريق

وليس مقصودنا إقامة محكمة جماعية أو فردية للناس، إنما مقصودنا أن نعظ أنفسنا والمسلمين، وأن يخاف كلٌ منا علىٰ نفسه، وأن يتبصر: أين هو من وراثة النبي ﷺ ؟.. و أين هو من ذلكم الامتداد الكريم للطائفة الظاهرة علىٰ الحق المنصورة؟.. أين هو منهم ومن رسالتهم التغييرية للحياة ؟..

إنه الطريق الصعب في ظاهره، لكنه الطريق الذي وعد أهله بالنصر: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[1].. الطريق الذي وعد أهله بالتثبيت: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2].. الطريق الذي وعد أهله بالهداية ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[3].. الطريق الذي وعد أهله برضا الله ﷻ والأمان من النفاق في الدنيا، والأمان عند الموت، والأمان في القبر، والأمان يوم الفزع الأكبر كما سماه الله ﷻ.

نعم إننا ننتظر يوم الفزع الأكبر، ولكن في ذلك اليوم سيأمن ناس طالما خافوا في الدنيا، وخُوفوا في الدنيا، هؤلاء هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[4].. والموعد عند رب العالمين قريب.

1- [الحج – 40].

2- [إبراهيم – 27].

3- [العنكبوت – 69].

4- [الأنعام – 82].


واجب المستضعفين

واجب المستضعفين

في الوقت الذي تعيش فيه طوائف من المستضعفين من هذه الأمة تحت قصف المدافع، وبينما تلتهب الأرض المباركة بنيران الأعداء. في نفس هذا الوقت، تعيش الأمة كلها تحت قصف خطاب التخذيل، وتلتهب صدور الحيارىٰ بحثًا عن مخرج مما آل إليه حال أمتنا، ومما يصيبها من المظالم والمحن الكبار ...

خطورة خطاب التخذيل

ولا أراني مبالغًا إن قلت إن قصف الأفكار والمشاعر بالخطاب المخذل، كان ولا يزال هو الأشد إيلامًا، والأكثر تدميراً، لأنه ينزل علىٰ القلوب والأرواح، فيدك بوابات الأمل بفرج قريب، ويزلزل من حقائق هذا الدين ما ينبني عليه العمل الجاد، لنصرة دين الله والمستضعفين.

إذ يراد لهذه الأمة عامة، ولمقدمتها من العاملين للإسـلام خاصـة، أن يرضـوا بالتعايش مع الباطل، من الكفر والظلم والعدوان، في ظل عولمة الحرب على الإسـلام، بل أن يقنعوا بالفتات من الحقوق والمكتسـبات – إن نالوها –، وإلا فليهرعوا إلى زوايا خفية، يبكون أو يدعون، ولينتظروا – إن شاءوا – فرجا أو نصرا سماويا خالصا. فإنه لا أمل للمستضعف، ولا عمل، إلا الاستسلام والكسل، أو مداهنة الباطل ليسمح لنا بحياة ما... ويا لها من حياة !..

فرقان الوحي عبر الزمن

ومع قدم تاريخ اسـتضـعاف الفئة المؤمنة في حياة البشـرية، حتى يكون بعث النار «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وينجو واحد»[1] وكما أخبر النبي ﷺ في حديث عرض الأمم : «فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ...»[2] مع كل ذلك ، فإن الوحي ما كان ليتركنا دون بيان للواجب على المسـتضـعفين من المؤمنين ، لتتحقق لهم النجاة التي ينشدونها في الدنيا والآخرة.

1- متفق عليه: البخاري (3186) ومسلم (353) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

2- متفق عليه: البخاري (5752) ومسلم (349) عن ابن عباس ﷺ.

إن القرآن الكريم، وهو الذي جعله الله فرقاناً بين الحق والباطل، من القضايا والأشخاص، ومن المواقف والأحداث، قد قسم تاريخ استضعاف المؤمنين إلىٰ مرحلتين كبيرتين:

المرحلة الأولىٰ: مرحلة الفرار بالإيمان

وهذه المرحلة تمتد زمانياً من بعثه نوح ﷺ، إذ هو أول رسول إلىٰ الكفار، ومعه كانت أول فئة مؤمنة في ظل استضعاف من أمة كافرة. وإلىٰ إنزال التوراة علىٰ موسىٰ ﷺ.

في هذه المرحلة، كلما كان الناس يكفرون، كان الله يرسل الرسل، ليجددوا الدعوة إلىٰ الدين الحق، فتستجيب فئة مؤمنة، وقد كان ولا يزال المؤمنون عبر التاريخ قلة، كما أخبر النبي ﷺ فيما سبق من الأحاديث.

وقد كان الواجب علىٰ المؤمنين في هذه المرحلة، الانحياز إلىٰ الإيمان وأهله، والدعوة إليه والثبات عليه. حتىٰ يفصل الله بينهم وبين عدوهم، فتكون نجاتهم بأسباب متنوعة، ويكون إهلاك أعدائهم واستئصالهم بالقدر الرباني الخالص ذي الصور المتنوعة أيضاً، لكن دون أن يكون للمؤمنين دور في هذا الإهلاك.

المرحلة الثانية: مرحلة دفع المؤمنين

وهذه المرحلة تبدأ بإنزال التوراة علىٰ موسىٰ ﷺ، وتمتد إلىٰ آخر الزمان.

والواجب علىٰ المؤمنين في هذه المرحلة، الانحياز إلىٰ الإيمان وأهله، والدعوة إليه والثبات عليه، وجهاد أعدائهم. حتىٰ ينصرهم الله علىٰ عدوهم، فتكون نجاتهم ويكون إهلاك عدوهم بأيدي المؤمنين. فصار المؤمنون هم قدر الله الغالب، الذي به يحقق سنته في خلقه. فهم أداة إنقاذ المظلومين، وهم أداة تعذيب المجرمين.

سمات المرحلة الثانية

في هذه المرحلة بقي عندنا شيئان، وتغير شيء: بقيت عندنا: سنة استضعاف الفئة المؤمنة كقدر جار في العباد، وبقي عندنا: قدر إهلاك المكذبين المجرمين، كجزء من الجزاء العادل، الذي يجريه الله في الدنيا تقدمة لما يقوم في الآخرة. وتغير شيء: لم يبق دور الفئة المؤمنة فقط هو أن تؤمن، ثم تنجو بنفسها، والله يتولىٰ أمر أعدائها، إنما صارت الفئة المؤمنة هي هذا القدر الغالب، وهي يد الله التي يعذب بها أعداءه في الأرض، ولذلك قال الله آمراً المؤمنين: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ فأمضىٰ الله سنته في تعذيب أعدائه، لكن ذلك صار بأيدي أوليائه. كما

قال ﷻ لنا: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾[1].

الأدلة القرآنية

لهذا ذكر الله ﷻ في سورة " المؤمنون " قصة نوح عليه السلام مع قومه كأول نموذج للمرحلة الأولىٰ ، فذكر الدعوة إلىٰ الإيمان ، ومن ثم افتراق الناس إلىٰ مؤمنين وكفار ، ثم إنجاء الله ﷻ للمؤمنين المستضعفين ، وإهلاكه ﷻ للقوم الكافرين بقدره الرباني الخالص.

وأتبع هذه القصة بقصة قوم مبهمين، جرىٰ فيهم ما جرىٰ في قصة نوح عليه السلام فكان إبهام الشخوص والزمان والمكان إشارة إلىٰ استقرار السنة الربانية ، دون أن يكون لشيء مما أبهم أثره فيها وجوداً أو عدماً . ثم أكد اضطراد هذه السنة فيمن بعدهم فقال ﷻ : ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢

1 – [التوبة – 15].

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾[1] فجمع كل من جاء بعد ، وأخبر عن سنته فيهم ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: متتابعين ، يدعون الناس إلىٰ الإيمان، والانحياز إليه وإلىٰ أهله ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ "فلم يزل الكفر والتكذيب، دأب الأمم العصاة، والكفرة البغاة ، كلما جاء أمة رسولها كذبوه"[2] ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ "بالهلاك، فلم يبق منهم باقية ، وتعطلت م ساكنهم من بعدهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالاً للمكذبين، وخزياً عليهم مقروناً بعذابهم"[3] ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

ثم قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وإلىٰ قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[5] في إشارة واضحة إلىٰ أن إر سال مو سىٰ عليه السلام كان إر سالا مختلفا، إذ أنزلت في ظله التوراة ، وختمت مرحلة الفرار بالإيمان، وبدأت مرحلة دفع المؤمنين.

وقريب من هذا الـ سياق، ويدعم دلالته "ما ذكر الله في سورة يونس من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ

1- [المؤمنون – 43] .

2- تفسير السعدي (766).

3- تفسير السعدي (766).

4- [المؤمنون – 44] .

5- [المؤمنون – 45 : 49].

فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٧٤ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[1] الآيات. والله أعلم. "[2].

اللحظة الفاصلة بين المرحلتين

أما ضبط هذا الحد الزمني الفاصل بين المرحلتين، وهو إنزال التوراة علىٰ موسىٰ ﵇، فقد جاء في سورة القصص في قوله ﷻ : ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾[3] قال الإمام الحافظ ابن كثير ﵀ في تفسيره : "وقال ﷻ: ﴿بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة، لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين"[4]. فبعد إنزال التوراة، لم يهمل الله شأن الناس، ولم يترك الظالمين المعتدين، إنما كلف المؤمنين أن يكونوا هم أداة تعذيب هؤلاء الكافرين.

لذا قال العلامة السعدي ﵀ في تفسير آيات سورة "المؤمنون" المذكورة: "مرَّ عليّ منذ زمان طويل، كلام لبعض العلماء ... وهو أنه بعد موسىٰ ونزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين الجهاد. ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات، مع الآيات التي

1- [يونس -74 : 75].

2- تفسير السعدي (766).

3- [القصص – 43].

4- تفسير ابن كثير (6/ 117).

في سورة "القصص" تبين لي وجهه. أما هذه الآيات، فلأن الله، ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى ﵇ بعدهم، وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس،... وأما الآيات التي في سورة "القصص" فهي صريحة جدا، فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1] فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية. وأخبر أنه أنزل بصائر للناس، و هدى ورحمة"[2].

1- [القصص – 43].

2- تفسير السعدي (766).

الأمة الشاهدة للمرحلتين

وشهد بنو إسرائيل مع موسىٰ عليه السلام هاتين المرحلتين ، فكان إهلاك فرعون وجنده ختام المرحلة الأولىٰ ، فلا يعترض به علىٰ ما ذكرنا من شأن المرحلة الثانية. وهذا ما قرره العلامة السعدي قائلا: "ولا يرد علىٰ هذا، إهلاك فرعون، فإنه قبل نزول التوراة "[1] وكان أمرهم بدخول "الأرض المقدسة" هو أول تطبيق عملي لـ سنة المرحلة الثانية، إذ أُمِروا أن يدخلوها بالجهاد في سبيل الله، وأن يدفعوا أعداء الله.

لكن بني إسرائيل، وهم أول فئة مؤمنة، تطالَب بإنفاذ سنة دفع المؤمنين للكافرين، طلبوا أن تستمر فيهم السنة القديمة، فقالوا لنبيهم الكليم عليه السلام: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾[2] أي: كما أهلك ربك لنا فرعون وجنده، ولم ندفعهم بشيء من أيدينا ، كذلك فليهلك لنا هؤلاء الجبارين الكافرين ، ونحن ندخل الأرض المقدسة . بل بلغ بهم الضعف والجبن أن قالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ﴾[3]قبل طلبهم السابق، كالتعليل له، وبئس التعليل ...

---

1 –السابق .

2 – [المائدة – 24].

3 – السابق .

فهل قبل منهم ذلك ؟!... إن الله ﷻ لم يقبل منهم ذلك، وهم في المرحلة الثانية، ولم يهلك لهم أعداءهم الكافرين، بل عذبهم، فكتب عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، عقوبة لهم، لا لأعدائهم.

عاقبة التخاذل عن واجب الدفع

تبين من ذلك أن من سلك سبيل هؤلاء، وجبن عن الدفع في ظل هذه المرحلة، نالته أمور ثلاثة:

الأول: يبقىٰ العدو، ويبقىٰ إفساده في الأرض أو يزيد. ولا يهلك عدوه، مهما انتظر، ما دام لم يقم بالواجب عليه. قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1] وقال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[2] فلابد من هذا.

الثاني: تعذيب المتخاذل في هذه الحياة الدنيا، فمن فر من ألم في الطاعة، عوقب بألم أشد في المعصية. قال ﷻ: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3] فإنه لا بد من عذاب - لا للظالمين - ولكن للمؤمنين، الذين ظلموا أنفسهم، لما لم يقوموا بالواجب عليهم، بالدفع عن دينهم، وعن المستضعفين من أمتهم، لأن الله عاقب بني إسرائيل، ولم يهلك - مع تخاذل بني إسرائيل - الجبارين، فبنو إسرائيل هم الذين تاهوا أربعين سنة في الأرض، جزاء جبنهم وتفريطهم وتقصيرهم في حق ربهم ودينهم ورسولهم وأمتهم، بل وفي حق أنفسهم...

1- [الحج - 40].

2-[الروم - 41].

3- [التوبة - 39].

الثالث: اســتبدال المتخاذل إذ نكص عن العبودية الواجبة، بمن هو خير منه، ممن يشــرف بأداء الواجب، وينال ثمرته. ففي نفس الآية الســابقة: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡــتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾[1]. وهذا أمر آخر خطير: إن هذا العمل، وهذه الوظيفة التي يعمل فيها العباد لله، ليس هناك ضــمان لأحد أن يبقىٰ موظفـًا فيها إلىٰ الأبد. الوظيفة تقبل الفصل، فيمكن أن تطرد منها.

صور من الاستبدال

فإن الله قد استبدل أممـًا بأمم، وبين لنا ذلك النبي ﷺ كما في صحيح البخاري، لما ذكر لنا مثلنا ومثل من قبلنا مع الله ﷻ فقال: «مَثَلُ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْــتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَىٰ اللَّيْلِ، عَلَىٰ أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا لَهُ إِلَىٰ نِصْــفِ النَّهَارِ، فَقَالُوا: لاَ حَاجَةَ لَنَا إِلَىٰ أَجْرِكَ الَّذِي شَــرَطْتَ لَنَا وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، فَقَالَ لَهُمْ: لاَ تَفْعَلُوا، أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبَوْا، وَتَرَكُوا، وَاسْــتَأْجَرَ أَجِيرَيْنِ بَعْدَهُمْ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلاَ بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الأَجْرِ، فَعَمِلُوا حَتَّىٰ إِذَا كَانَ حِينُ صَلاَةِ العَصْرِ، قَالاَ: لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، وَلَكَ الأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلاَ بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَأَبَيَا، وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّىٰ غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ، وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا

1- السابق.

مِنْ هَذَا النُّورِ»[1] إذا فالأمم تســتبدل، وتحل أمة جديدة مكان الأمة التي تتخلىٰ عن وظيفتها.

وفي حديث النبي ﷺ في صحيح مسلم، عن حال الناس قبل بعثة النبي ﷺ «إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»[2] هؤلاء البقايا، هل مقتهم الله؟ لا، لم يمقتهم، ولم يغضب عليهم. لماذا لم يمقتهم؟ كانوا موحدين، كانوا مؤمنين. ومع ذلك، فقد اســتبدلهم ببعثه النبي ﷺ وبإخراج هذه الأمة، وصارت نجاة هذه البقايا، في أن يكونوا تابعين للأمة الجديدة ، مصداقًا لحديث النبي ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[3] فصــارت نجاتهم في أن يكونوا تابعين، مع أنهم كانوا ســابقين. لماذا؟ لأن الوظيفة والعمل الذي كان مناطًا بهذه الأمة المؤمنة، من إقامة الحق، ودفع الفســاد في الأرض، صاروا أعجز من أن يقوموا به. فاستبدلوا بغيرهم، وصارت نجاة من ينجو منهم، أن يلحق بذلك الغير، فيكون من المؤمنين، من المســلمين، من أتباع ســيدنا محمد ﷺ.

1- البخاري (2172) عن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ.

2- مسلم (5318) عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ.

3- مسلم (244) عن أبي هريرة ﷺ.

ويستبدل جيل من الناس بجيل آخر، كما حصل مع بني إسرائيل الذين رفضوا دخول الأرض المقدسة مع موسىٰ ﵇، فعوقبوا بالتيه أربعين سنة، ليفنىٰ الجيل الجبان، وينشأ جيل آخر، يدخلها مع يوشع بن نون ﵇.

الاستبدال في الأمة المسلمة

وهذه الأمة آخر الأمم، لا تستبدل الأمة كلها، لكن يستبدل بعضها ببعض، يستبدل فرد بفرد، وتستبدل فئة بفئة، لأن الله عز وجل خاطب أفضل أفرادها، وخير الفئات من هذه الأمة، أصحاب النبي ﷺ، وهم خير الناس بنص النبي ﷺ : «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[1] هؤلاء خير الناس، قال ﷻ لهم: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾[2] فإذا هدد الصحابة، وهم خير هذه الأمة، بهذا التهديد، فكل من بعدهم داخل في هذا الوعيد. ولا يظنن واهم أن لا يأتي أحد خير منه، فقد جاء في حديث النبي ﷺ : «لا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا

1 – متفق عليه: البخاري (2530) ومسلم (4706) عن ابن مسعود ﵁.

2 – [محمد – 38].

الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ»[1] فالله ﷻ هو الذي يتولىٰ غرسهم. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[2] فالله ﷻ هو الذي يأتي بهم من عنده، وبفضله.

بقاء الطائفة المنصورة

إذاً فهذه الأمة لا تستبدل، لأنها آخر الأمم، لكنني أنا وأنت عرضة للاستبدال، يستبدل بعضنا ببعض، ويبقىٰ في الأمة دائماً وأبدا: تلكم الطائفة، كما أخبر النبي ﷺ : «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَىٰ مَنْ نَاوَأَهُمْ، حَتَّىٰ يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ»[3] وفي لفظ مسلم: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاسِ»[4] ولا يخفىٰ الفرق بين الخذلان وبين المخالفة، المخالف يقول لك: أنت مخطئ. والخاذل يقول لك: ما شاء الله، أنت علىٰ صواب، لكن قلبي معك، وليس أكثر من قلبي – إن لم يخذل بأكثر من هذا – فهذا خاذل. إنه لا يخطئك، لكنه لا ينصرك. فماذا تفعل بقلوب مجردة مبعثرة في الأرض؟!

1- حسن: ابن ماجه في المقدمة (8) وابن حبان (327) عن أبي عنبة الخولاني ﷺ. وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (8) .

2- [المائدة – 54].

3- صحيح: الحاكم في المستدرك (8456) عن عمران بن حصين ﷺ وصححه علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي والألباني في الصحيحة (1959) .

4- مسلم (3640) عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

نحن وواجب المرحلة

ونحن الآن، نعيش في المرحلة الثانية، لذلك قال الله ﷻ في "آية البيعة": ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾[1] فابتدأ بالتوراة، مع أنه كانت هناك كتب قبل التوراة ، لماذا ؟! لأن سنة القتال ومجاهدة أعداء الله، ودفعهم بأيدي المؤمنين ابتدأت منذ إنزال التوراة، وامتدت في الإنجيل، وامتدت في القرآن، وصارت هذه سنة الله الماضية إلىٰ آخر الزمان.

لا صلاح إلا بالدفع

و قد علمنا الله – كما مر – أن الحياة لا تصلح في هذه المرحلة إلا بالدفع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[2] فليس هناك سبيل آخر. والدفع لفظ عام، يشمل كل صور الدفع الممكنة. وكل صورة من البغي، لها صورة من الدفع تقابلها وتناسبها، فشرع الله ﷻ دعوة الكافر ، وتعليم الجاهل، وتذكير الغافل ، و شرع أيضًا الإنكار علىٰ الموغل في أهوائه ، و شرع الجهاد ضد الذين يصدون عن سبيل الله بسيوفهم وأيديهم . فالحجة تقابل الشبهة، والكلمة تقابل الكلمة، والسيف أمام السيف. وعليه، فإن كل وسيلة شرعت لمقابلة ما

1– [التوبة – 111].

2– [البقرة – 251].

يكافئها، في ظل ضـوابط لاسـتخدام هذه الوسـائل، دلت عليها الشـريعة، وبينها العلماء، ليس هذا مقام بيانها.

ألسنا ضعفاء ؟!

إن المشـكلة ليسـت في مجرد الضـعف، إنما هي في الرضـا بالضـعف، أو إن شئت فقل: في الاستسلام للضعف، وعدم السعي لتجاوزه إلىٰ القوة. نعم، الضرورة لها أحكامها، لكن: الضرورة تُقَدّر بقدرها، كما أن السعي في إزالة الضرورة واجب، كما قرر أئمة الإسلام.

بين الواجب الرباني والوعد الرباني

ولا أمل بغير عمل، فإن النصـر الذي وعد الله به عباده المؤمنين موثوق به، لأنه وعد الله، لكن هذا النصـر لا يأتي بمعجزات علىٰ نيام. ولا يجوز أن ينتظر المسلمون طيرا أبابيل تحرس بيت الله، ولا أسوة في قول عبد المطلب: "لِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ" فإنها كلمة من جاهلي قبل الإسلام، والبيت له رب يحميه في كل وقت، فالله يحمي ما شاء متىٰ شاء، لكن الله لم يحم البيت، لأجل كلمة عبد المطلب، ولم يكن سـلوك عبد المطلب سـلوكا شـرعيا ، وإنما حمىٰ الله البيت لأسـباب أخرىٰ، منها إظهار شرف هذا البيت – ولا يلزم فيه التكرار – وإظهار شرف هذا الزمان ، وذلك لإظهار شـرف هذا النبي ﷺ الذي يولد في هذا الزمان عند هذا البيت ، لتخرج خير أمة أخرجت للناس ، تعمر هذا البيت وتحميه.

في التاريخ عبرة

فلما بُعِث النبي ﷺ وخرجت أمته، كان الواجب عليها أن تحمي بيت الله. وحين ضعفت الأمة، وفرطت في حمايته، أتىٰ القرامطة فقتلوا الحجيج في يوم التروية، وأخذوا الحجر الأسود من الكعبة، واحتفظوا به سنين عددا، وكان كبيرهم يقول وهم يستبيحون الحرم: أين الطير الأبابيل ؟![1] وصدق وهو كذوب. نعم، لم تأته الطير الأبابيل، ولا يجوز للمسلمين أن ينتظروا الطير الأبابيل، كيف ينتظرونها، وهم أمة قوية كبيرة قادرة ؟!.. بل الواجب عليهم أن يقوموا بأمر ربهم.

إنه قد جاء عن النبي ﷺ أن الكعبة تهدم في آخر الزمان، فقال ﷺ : «يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنْ الْحَبَشَةِ»[2].. حين لا يطوف بالبيت طائف، حين تنهار الأمة وتتراجع، ويضمحل الإيمان ويقل المؤمنون، ويأذن الله بقرب زوال هذه الدنيا.. يهدم البيت، وله في كل حال "رب يحميه" فليس سر حماية البيت كلمة عبد المطلب، بل بعث هذه الأمة، التي تحمي البيت بأمر ربها، وتحمي حرمات الله، وتحمي عباد الله. ولا يجوز لها بحال أن تركن إلىٰ الدنيا، وتقول: ربنا سيحمي بيته.. وينصر عباده.. ويظهر دينه..

1- فعل القرامطة هذا عام 317 هـ. واحتفظوا بالحجر الأسود لمدة اثنين وعشرين سنة. راجع البداية والنهاية لابن كثير (11/ 161:160) ط. مكتبة المعارف – بيروت .

2- متفق عليه: البخاري (1524) ومسلم (5288) عن أبي هريرة ﷺ.

نعم، سـيحدث ذلك. لكن بعذاب الجبناء، وبمصـاب المتثاقلين، وبإخراج من يكونون يد الله، التي ينتقم بها من أعدائه، ويظهر بها أمره في الأرض.

وختاما

إننا تحت قصفين، لكننا نستشرف عدلا قائما، ونصرا آتيا .. بأيد مؤمنة. نسأل الله أن تكون أيدينا من تلك الأيدي، وأن يصـلحنا الله ولا يسـتبدلنا .. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا .. وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان .. واجعلنا من الراشدين .. آمين.

الاستضعاف .. وتغيير الأهداف

الاستضعاف وتغيير الأهداف

الحمد لله الذي خلق الإنسان فسواه، وكرم المؤمن واصطفاه، وصلىٰ الله و سلم علىٰ أكمل خلق الله، محمد رسول الله، و بعد ...

رؤية .. دعت للكتابة

فإن الراصد لواقع الحركات الإسلامية، الذين هم قلب الأمة النابض بسر الحياة، ودليلها الناصح إلىٰ جنتي الدنيا والآخرة، يشهد ـ في الأعم الأكثر ـ تراجعا ملحوظا علىٰ مستوىٰ الأهداف المرفوعة للعاملين للإسلام ابتداء، ولمجموع الأمة بالتبع. والمقارنة بين طرح الدعاة قبل عشرين عاما، وبين طرح الدعاة اليوم – سواء أكانوا هم أنفسهم، أم غيرهم – لا يترك مجالا للشك في هذه الملحوظة.

ثم إنه لما كان من أخص خصائص العمل الإسلامي، تعبيره عن الوحي المنزل من السماء، واستعلاؤه علىٰ ما يرفضه الشرع من واقع، مهما بدا ثقيلا في حس أهل الأرض. وراثة لدور الأنبياء

عموما، واسـتلهاما لسـيرة إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ وصـحابته الأبرار رضي الله عنهم خصوصا.

لما كان الأمر كذلك، كان واجبا علينا أن نتناصـح – ونحن أبناء العمل الإسـلامي، منذ ربع قرن من عمر الزمن –، وأن يكون ذلك التناصـح منطلقا من معاني الوحي، إذ عنه ينبع كل هدىٰ وخير. ولهذا... جاءت هذه الكلمات.

أهدافنا الكبرىٰ .. وأعذار تغييبها

إن أهدافًا شرعية كبرىٰ، كهداية العالم، وتحكيم الشريعة، وإقامة الخلافة، ونصرة المستضعفين، وتحرير المقدسات خاصة، والثغور الإسلامية عامة. إن هذه الأهداف لا يمكن أن يتم تهميشها في حس أجيال المنتسبين إلىٰ العمل الإ سلامي، بل وأطياف الأمة المسلمة، كما يحدث الآن من طائفة متصدرة من أهل العلم وقادة الدعوة. اكتفاء بموعظة بليغة، أو رضـا بتعليم مفيد، أو قياما بخدمة خيرية. حيث يجمعها أنها خارج دائرة الاشـتباك مع الباطل وأهله، أو أن فيها تسـويغا لقدر من التعايش مع الباطل وأهله.

إن أعذارهم وحججهم تكاد تنحصر في:

الاعتبار بالتضحيات الكبيرة، التي قدمت خلال عشرات من السنين ما ضية، والتي لم تكافئها النتائج المرجوة. والشـريعة تعتبر مآلات الأفعال، وتوازن بين

المصـــالح والمفاســـد، فما كانت مفســـدته غالبة، لم يكن مشـــروعا، وإن أدخل في الشريعة بتأويل ما.

أو المقارنة بين الضـعف والتمزق، اللذين يسـتشـريان في الواقع الإسـلامي، وبين القوة والتحالف العالمي، والمتزايدين في ظل عولمة العداوة للإسلام ولأمته. فإنه كلما ازداد هذا الفارق، برجحان كفة الأعداء، كانت حال الا ستضعاف أ شد، وكانت الأحكام الا ستثنائية المترتبة عليه أكثر كما، وأ شد توكيدا. وهذا من واقعية الشريعة.

أو الدعوة للتقيد بحدود الممكن دون غير الممكن – والذي أدىٰ الاهتمام به سـابقـًا إلىٰ خسـارة الاثنين معـًا –. والبصـير من اعتبر، فإن أوامر الشـريعة كلها، شرطها الا ستطاعة، إذ لا تكليف إلا بمقدور. فالتعلق بالأهداف الكبرىٰ، تعلق بما لا قدرة عليه، بل بما يؤدي إلىٰ حرمان الأمة من الأهداف القريبة التي تحتاج إليها وتنتفع بها. والتاريخ – البعيد والقريب – يشهد لهذه الحكمة، ويشهد علىٰ سلبيات تجاوزها .

أو التأصيل العلمي الذي يربط بين العلم والعمل، فلا يجب تعليم الناس ما لا يجب عليهم عمله – ولا وجوب إلا مع الاسـتطاعة، كما هو معلوم –. فلماذا نخوض المعارك، لنشيع علما، لن يعمل به الآن ؟!.. في نفس الوقت، الذي تحتاج فيه الأمة إلىٰ كثير من العلم، والذي يعمل به. ألا تحتاج إلىٰ من يعلمها أحكام

العبادات، والأخلاق، والمعاملات؟!..إن هذه مرحلة الإصـلاح الداخلي، والبناء الفردي والمجتمعي . وهي مرحلة لا يمكن تجاوزها، للوصـول إلىٰ الأهداف المنشودة، وهذا محل اتفاق . فلماذا ننشغل عنها بغيرها ؟!..

فوجبت المناقشة

إن هذه الحجج، مع تسليمنا بصحة مقدماتها، بل ومع إحسان الظن بنوايا طائفة من أصحابها، تتمثل مشكلتها في أنها مبنية علىٰ خلفية الانكسار والاستضعاف، بسبب معطيات الواقع المؤلمة، وخبرة التاريخ المعاصر. كما أنها لا تخلو من استعجال الفرج – ولو شيئًا ما –، فرجا يتيح لأهل الدعوة حرية نسبية في ممارسة الإصلاح، حتىٰ لا نكون واقفين في طريق مسدود.

إن فكرة تغيير الأهداف بما يتواءم مع حال الاستضعاف، بمعطياتها السابقة، تتسبب في تفويت ثمرات مهمة. كما أنها في نفس الوقت، قد وقعت في خللين كبيرين. وبيان ذلك باختصار في الأوراق التالية:

تمهيد علمي ضروري: ألم يقسم العلماء القرآن إلىٰ مكيٍ و مدنيٍ، و أشهر معايير التقسـيم هو المعيار الزماني، فما نزل قبل الهجرة فهو مكيٍ – و إن نزل بغير مكة –، و ما نزل بعد الهجرة فهو مدنيٍ – و إن نزل بغير المدينة، و لو بمكة–[1]..؟

ولا يظنن أحد أن ذلك كان من جنس الترف العلمي، والفراغ الذهني، الذي لا يترتب عليه فائدة وعمل. إذ أن العلم الذي لا ينفع، شر كان النبي ﷺ يستعيذ بالله منه[2].

فما الذي نستفيده من هذا التقسيم ؟!

إنني في هذه الكلمات الوجيزة أتذاكر معكم شـيئا من ثمرات هذا التقسـيم. وهي:

إن معرفة أثر الظرف الذي تنزلت فيه كلمات الله ﷻ مهم حتىٰ يحسن فهم هذه الكلمات، فإن السـياق له دوره في فهم المراد، وفهم المقتضـيات المعتبرة من هذا المراد، وفهم الدلالات الملغاة بقرينة السياق. والسياق منه اللفظي، ومنه الحالي، وكلاهما مؤثر اعتبارا وإلغاء. هذا من جهة.

1– مباحث في علوم القرآن ، لمناع القطان (57)، ط. مكتبة وهبة (العاشرة) 1417هـ – 1997م. و مناهل العرفان في علوم القرآن ، لمحمد الزرقاني (142)، ط. دار إحياء التراث العربي (الثانية) 1419هـ – 1998م.

2– صحيح: أخرجه أبو داود (1548) و النسائي (8/ 263) و ابن ماجه (3837) و أحمد (2/ .340–365–451) و الحاكم (1/ 104– 534).

و من جهة أخرىٰ، يعتبر أولو الأبصـــار، امتثالاً لأمره ﷻ بذلك[1]. ولا يمكن هذا العبور للفوائد إلا من خلال فهم كل من:

السـنة الربانية – وهي عادته التي طردها في عباده –. فيميز بين المقدمات الصادقة والكاذبة، وتعرف النتائج الحقيقية من الموهومة. ويستشرف المستقبل من خلال المعطيات المؤثرة، في ظل القدر الرباني المحكم، والوعد الرباني الأكيد.

والواجب الشـرعي – وهو من خطاب تكليفه لعباده –. والذي تبرأ الذمة بامتثاله، ويتحقق الإيمان بتطبيقه، بل ولا ترجىٰ حسـن العاقبة إلا في متابعته. فحل المشكلات إنما يكون بإنزال دواء الشريعة عليها، لا بالخروج عنها.

ثم تنزيل ما سبق في ظل الظروف المشابهة، والتي تمر علىٰ الأمة المؤمنة أو الفرد المؤمن. إذ أن هذا التشابه هو قنطرة العبور. وبدونه تتأكد الخصوصية، وتثبت الفوارق. فإن الشـرع الحكيم لا يفرق بين المتماثلين، كما أنه لا يسـوي بين المختلفين. والفقيه حقا من يميز الصفات الجامعة، والصفات الفارقة، فيجمع بين ما جمع الشرع بينه، ويفرق بين ما يفرق الشرع بينه.

---

1 – ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر – 2].

الأهداف في المرحلة المكية

لقد قال الله ﷻ : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1].. قال ذلك للنبي محمد ﷺ ، و للمؤمنين معه بالتبع، في مفتتح سـورة مكية و هي سورة إبراهيم عليه السلام[2].

والشاهد من هذه الآية تلك الرسالة العالمية الواضحة "تغيير حياة كل الناس من كل باطل إلىٰ الحق" واعتماد مرجعية الوحي الذي أنزل لتحقيق هذا "التغيير العالمي" علىٰ الرغم من أن أوضـاع المؤمنين بمكة كانت غاية في الاسـتضـعاف[3] هذا من ناحية.

وعلىٰ الرغم من أن الممارسـة الفعلية للأسـباب المباشـرة لهذا "التغيير العالمي" تأخرت عن ذلك كثيراً، فمراسـلة الملوك المحيطين بالجزيرة ودعوتهم إلىٰ الإ سلام، لم تتم إلا بعد صلح الحديبية – والذي كان عام 6 هـ –. أما فتح تلك البلاد، فلم يكن إلا بعد انتقاله ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ[4]. بل لازالت بلاد من أرض

1- [إبراهيم – 1].

2- تفسير القرطبي (9 / 348) .

3- البداية و النهاية ، لابن كثير (3 / 98) ، فصل في مبالغتهم في الأذية لآحاد المسلمين المستضعفين.

4- السابق (4/ 257) و (6/ 297).

الله، و ناس من خلقه ﷻ لم تصـبهم رياح هذا التغيير بعد، ولم تفتح لهم أبواب أنواره، وهذا من الناحية الأخرىٰ.

فكيف تحقق الاتزان بين الهدف والممارسة؟

لقد ظلت أقدام المسـلمين تتحرك في واقع معاش تحكمه اعتبارات لظروفه، لكنها تتحرك. وحركتها لها وجهة محددة، إنها تتحرك نحو هدف لا يغيب عن العينين. والقلب المحرك يسـتمد طاقته من رؤيته لهدفه، وهو – في نفس الوقت – يتخير المواضـع للقدمين. إذ لو غفل عن الأولىٰ.. تاه، وربما ضـاع. ولو غفل عن الثانية .. تعثر، وربما سقط .. و ضبط العلاقة بينهما هو .. الاتزان الشرعي. وبيانه كالتالي:

أولا: إن مواضـع الأقدام – أعني: الظرف الحالي المحيط بالفرد المؤمن أو بالفئة المؤمنة – له أثره المعتبر علىٰ الفعل الإنسـاني. هذا من حيث الممارسـة المرتبطة بعالم الأسـباب، والذي تطلب فيه المقدمات للوصـول للنتائج. وذلك الاعتبار من ضبط الوحي لخطوات الحركة، وتشريع الوسائل الملائمة لكل حال. لكن في ظل السعي للتغيير المنشود، وبما لا يؤثر بالسلب علىٰ الأهداف الكبرىٰ، سواء أكان التأثير السلبي عن طريق المعارضة، أو التشويش، أو التغييب.

ثانيا: أما العينان، فلا بد أن تبصرا ما هو أوسع وأبعد من ذلك الظرف، حيث ترنوان إلىٰ غاية الطريق وترتبطان بهدفه. وإلا كان نظرهما ترسيخا للوضع القائم،

أو تعايشـــا معه في حدود الموجود، أو مدعاة للمراوحة في المكان – في أحســـن الأحوال –.

والقلب الذي هو محل الأفكار والمشـــاعر. لابد وأن يتعلق بالعينين، فتملأ القلبَ الرســـالة الكبيرة، ويشـــتاق إلىٰ أهدافها، يرجو غايتها، ويثق بنجاحها. مع إدراكه لواقعه، وحركته المناسبة لتغييره. وهذا يحقق ثمرات هائلة.

من ثمرات التعلق بالأهداف الكبرىٰ:

إنه يحفظ القلب عن التأثر السـلبي بظرف الاسـتضـعاف لواقع مرفوض، فلا يتعايش معه، ولا ينكســر أمامه. وخذ العبرة مما أصـــاب النصـــارىٰ، لما تأثروا باســتضــعافهم لواقع وثني، وانكســروا أمامه. فأنتج التعايش دينا يحمل اســم النصرانية، وهو متماش – في نفس الوقت – مع اللوثات الوثنية.

وبه يتحرر القلب من وهم ثبات الأوضـاع الباطلة، واسـتحالة تغييرها، يتحرر بأمل ويقين، يحركان القدمين، لتخطوا الحركة المناسـبة في الاتجاه الصـحيح. فإن اليائس لا يتحرك، بل يستسلم، أو ينسحب، أو ينتحر، أو يتحرك بضعف وعشوائية، لأنه – في قرارة نفسه – لن يصل لشيء.

فإن أسرت القدمان في ظل لحظة من الزمان، وفي حدود شبر من المكان، يبقىٰ القلب طليقـًا مرفرفـًا، عصــيـًا علىٰ الأســر، يبقىٰ ذا دور و قيمة – و لو بجهاد

القلب[1]، الذي ليس وراءه من الإيمان حبة خردل - مما يحفظ عليه كرامته الإنسانية وإيمانه الصادق.

وهذا الحد الأدنىٰ من المكاسب، ليس بأدنىٰ. بل هو كبير جدا، فإنه لا يسعىٰ للتحرر إلا أحرار النفوس. ولا يغير الحياة، إلا من يغاير ها. و هل فتح النبي ﷺ الدنيا إلا بمن هذه أوصافهم ؟!..

الخللان الكبيران للمتراجعين عن الأهداف:

مـخالـفة منهج الوحي، وا لذي هو روح الروح، وبفـقده يفوت الصـــواب، وتتخلف النتائج الشرعية الموعودة.

ويزيد هذا المعنىٰ و ضوحـًا – بالإضافة للآية [2]، التي انطلق الكلام منها – ما جاء في حديث خباب بن الأرت ﷺ قال: "شــكونا إلىٰ رســولِ اللهِ صــلَّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لهُ في ظلِّ الكعبةِ، قلنا لهُ: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو اللهَ لنا؟ قال: «كان الرجلُ فيمن قبلكم يُحْفَرُ لهُ في الأرضِ، فيُجْعَلُ فيهِ، فيُجاءُ بالمنشــارِ فيُوضَعُ علىٰ رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتيْنِ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ. ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لحمِهِ من عظمٍ أو عصــبٍ، وما يصــدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، واللهِ ليُتِمَّنَ هذا الأمرُ،

1- مسلم (177) عن خباب بن الأرت ﷺ .

2- والتي رفعت الأهداف الكبرىٰ ، في ظل الاستضعاف المكي القاسي.

حتىٰ يسـيرَ الراكبُ من صـنعاءَ إلىٰ حضـرموت، لا يخافُ إلا اللهَ، أو الذئبَ علىٰ غنمِهِ، ولكنكم تستعجلونَ»"[1].

فالنبي ﷺ هنا لم يلتفت إلىٰ مشـروعية الطلب وهو "الدعاء" إنما التفت إلىٰ الباعث و هو "استعجال مخرج ما، تعبا من حال الاستضعاف" وبالإضافة لهذا التحليل الصادق للمشكلة، بل بالبناء عليه، طرح مشـروعـًا للعلاج، مكونـًا من أمرين:

أولهما: استصغار التضحيات – مهما كانت – في جنب الله ﷻ والاستعانة علىٰ ذلك بالمقارنة بمن سبق من المؤمنين الصادقين، والذين تحملوا أكثر مما تحملنا، وبذلوا أكثر مما بذلنا ..

«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ» ونحن لم نصل إلىٰ هذه الحال بعد ..

وليتعظ الواحد منا بموعظة الله ﷻ لنبيه ﷺ في مستهل تحميله لأمر هذه الدعوة العظيمة: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[2] فقد "قال الحسن البصري: لاتمنن بعملك

1- البخاري (3612) عن خباب بن الأرت ﷺ وأبو داود (2649) والنسائي(8/ 204).

2- [المدثر – 6].

علىٰ ربك تستكثره. و كذا قال الربيع بن أنس، و اختاره ابن جرير"[1] .. فكيف يرىٰ مؤمن مقصر – بعد هذه الموعظة – عمله أو تضحيته كثيرة ..؟!

ثانيهما: استحضار تحقق الأهداف المرجوة و تعميق الثقة في وعد الله ﷻ بذلك، مهما بدت ظواهر الأسباب غير مؤدية إلىٰ تلكم النتائج ..

«وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» .. فأمر الله سيتم ويظهر قطعا .. وستتبدل حال الاستضعاف هذه .. حتىٰ إنه سيبسط الأمن إلىٰ أطراف جزيرة العرب «مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَ مَوْتَ» .. وليس بيننا وبين هذا الوعد الصادق.. إلا بعض الوقت .. «وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»..

فالمقصود أن تعلق القلب برؤية العين هنا، كان مما عولج به مرض هبوط القلب – باقترابه من مستوىٰ القدمين – والذي أورثه انزعاجًا واستعجالاً. وقد كان هذا في أسوء ظروف الاستضعاف، والتي يطلب الناس فيها "حلاً ما" ليتجاوزوا شدة أوضاعهم. ألا فليتعلم الدعاة والقادة والمربون، من نبيهم ﷺ ..

الخلط بين تعامل الوحي مع كل من الأهداف والوسائل، أو الرسالة والممارسة. فإن كل دليل صحَ مما أوردوه، إنما يصدق علىٰ الوسائل والممارسة،

1- تفسير ابن كثير (8 / 207)، تخريج هاني الحاج، ط. التوفيقية.

لا على الأهداف والرسالة، وبغير هذا الفهم، لا تجتمع أطراف الأدلة، وتلتئم في سياق الحق الواحد. فهذا مفتاح الحل، والذي يزداد اتضاحا بما يلي:

مفتاح الحل

إن ما سبق وذكرناه في أول هذه الكلمات من تأخر في ممارسة وسائل متعددة، مراعاة لمختلف الظروف، مع تأكيد سبق طرح الأهداف الكبرى للرسالة – ولو في حال الاستضعاف –، إن هذا يزيل كثيراً من غبش الرؤية، و ضباب المنهج، ووهم التعارض بين أدلة الشريعة المطهرة.

فالتضحيات لا ينبغي أن تكون ذريعة لتشويه المنهج، ومن أرهقته التضحيات – وهي مرهقة – فليعط نفسه فرصة لالتقاط الأنفاس، وليذكر حديث النبي ﷺ : «لاَ يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ»[1] .. والذي أخذ منه العلماء، أن من كان تحت تأثير ضغط ما، فيفقد الاتزان الذي لا يجوز أن يحكم بدونه، فإنه لا يقضي ولا يحكم في هذه الحال .. فهل يتأنى المتعبون..؟!

والوحي – قرآنا وسنة – مليء بذكر تضحيات أولياء الله، كما في حديث خباب السابق. بل إن الذين يبذلون أرواحهم نصرة لدينهم .. هم الشهداء .. وهم الأحياء .. بينما يموت سائر الناس ..

1– البخاري (6759)، مسلم (3327) عن نفيع بن الحارث الثقفي أبو بكرة رضي الله عنه .

والذين لا يريدون دفع ثمن العزة، يدفعون ضعف الثمن .. في ذل. وهذا تاريخ أمتنا – قديمه وحديثه – خير شاهد على ما نقول.

وضعف الأمة أمام أعدائها، هو نفس الظرف الذي تنزلت فيه كلمات الوحي بالأهداف الكبرى. وكان التذكير بهذه الأهداف، مع ضبط الممارسة تجاه الواقع، كان ذلك كله مما أخرج خير أمة، وحقق أفضل واقع.

فهل يتصور مسلم، أنه كان هناك طريق أقرب .. أو أيسر .. أو أسرع .. للوصول للأهداف .. ومع ذلك .. تركتها شريعة الحكيم الخبير ..؟!

كما أن الممكن في عالم الأهداف، أكبر من الممكن في عالم الممارسة. وإن كان هناك من أخطأ فأفرط في الممارسة، احتجاجا بالأهداف الكبيرة. فإن رد الفعل بالتفريط في الأهداف، احتجاجا بقيد الممارسات الممكنة، لهو خطأ أكبر، إذ يسبب تشوها في فهم الدين، وقصورا في نصرته.

ومع تفاوت الممارسات الممكنة .. كم صورة ستنتج لنا .. للأهداف الإسلامية..؟! فهل سيقبل كل هذا الخلل في التصورات والمفاهيم ..؟!

إن ردات الفعل غير المنضبطة للانحرافات .. أنتجت عبر التاريخ.. انحرافات أكثر. حصل هذا على مستوى الانحرافات العقدية .. والفقهية.. والسلوكية .. فضلا عن غيرها من جوانب حياة الأمة المسلمة. بل وهذا ما لا يزال

يحصل علىٰ المستوىٰ الفكري، وغيره. فلا نجا ة إلا بالاعتصام بالوحي، والتزام سبيله.

وربط العلم بالعمل صحيح، إذا أحسنا فهم العمل. فليس العمل محصورا في ممارسة ظاهرة بالجوارح، نؤديها في ظل ظرف بعينه.

بل إن هناك واجبات علىٰ القلب أن يعملها. كحب الواجبات الشرعية المفقودة، فكيف يحبها وهو لا يعلمها ..؟! وكبغض المنكرات شرعا الموجودة، فكيف يبغضها وهو لا يعلم إنكار الشرع لها..؟!

كما يجب علىٰ المتلبس بأحكام الضرورة، أن يسعىٰ في إزالة هذه الضرورة، ليرجع إلىٰ الأحكام الشرعية الأصلية. ولا يجوز له أن يرضىٰ بالتعايش مع الاستثناء، دون سعي إلىٰ الأصل. فمن لا يعرف الأحكام الشرعية الأصلية .. كيف سيسعىٰ إليها..؟! ومن لا يعرف أنه في استثناء ألجأته إليه الضرورة .. كيف سيسعىٰ للخروج مما هو فيه ..؟!

ولا يمكن بناء الفرد المؤمن، وإصلاح مجتمعاتنا، إلا بمجموع العلم النافع، والعمل الصالح، الذي ذكرنا ..

احذروا الكتمان المحرم

فتغييب بعض الحق، ولو مع إظهار بعضه الآخر، يخشىٰ أن يندرج تحت عموم الوعيد الرباني: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[1] و "هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الر سلُ من الدلالات البينة علىٰ المقا صد الـ صحيحة والهدىٰ النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله ﷻ لعباده في كتبه، التي أنزلها علىٰ رسله... يلعنهم كلّ شيء علىٰ صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كلّ شيء، حتىٰ الحوت في الماء والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ فـ ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾."[2]

فإن "عموم الآية في الكاتمين، وفي الناس، وفي الكتاب؛ وإن نزلت علىٰ سبب خاص، فهي تتناول كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلىٰ بثه ونشره "[3] "فإن الله أخذ الميثاق علىٰ أهل العلم، بأن يبينوا الناس ما منّ الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين، كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته.

1- [البقرة – 159].

2- تفسير ابن كثير (1 / 259).

3- البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي (1 / 453) ط. دار الفكر.

﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتىٰ الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزل الله، مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد."[1]

وكيف لا يخاف من عموم هذه الآية، وقد ورد "أن جماعة من الصحابة حملوا هذا اللفظ علىٰ العموم"[2] ؟!.. ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: "لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحدًا شيئًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ الآية "[3].

والزعم – بعد ما ذكرنا قبل – بأن ما كتم لا يحتاج إليه، زعم باطل. فإنه تغييب لواجبات متعلقة بنوازل حالة، وإخفاء لكليات يؤدي إخفاؤها إلىٰ تحريف منظومة الدين ذاته في حس حملته، مما يباعد بين الأمة وبين الإصلاحات الكبرىٰ التي يجب أن تسير إليها.

1- تفسير السعدي (82) ط. جمعية إحياء التراث الإسلامي.

2- مفاتيح الغيب، للرازي (4 / 139) ط. دار إحياء التراث العربي.

3- متفق عليه: البخاري (118) ومسلم (2492) عن أبي هريرة ﷺ.

فإذا أضيف إلىٰ ذلك، أن إظهار هذه الأهداف الكبرىٰ، لا يترتب عليه إزهاق للنفس، ولا ما يقارب ذلك – في الأعم الأكثر، وهو محل كلامنا –. فكيف نقبل هذا التغييب ..؟!

بل إظهار الحق أغلىٰ من الحياة

لقد صار من المعالم شبه الغائبة عند مدعي "الحكمة الدعوية": قيمة إظهار الحق في الأرض، وأنه مطلوب شرعا، محبوب للرب ﷻ، وإن لم يثمر تغييرا في الحال. بل إن قيمته في ميزان الشرع، أعلىٰ من قيمة حياة بعض أولياء الله في الأرض.

ألم يقل رسول الله ﷺ: « سيِّدُ الشُّهداءِ: حمزةُ، ورجلٌ قامَ إلىٰ إمامٍ جائرٍ فأمرَهُ ونهاهُ، فقتلَهُ»[1] ؟!.. فكيف يحكم بخطأ، ما حكم الشرع بصوابه ؟!.. وكيف يهمل عمل، يبلغ بصاحبه رتبة «سيِّدُ الشُّهداءِ» ؟!..

ألا فليثبت ميزان السماء .. ولتتطاير كل موازين الأرض الخائبة، والتي نصبت بديلا عنه ..

1- حسن: أخرجه الحاكم في المستدرك (4836) وصححه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (3675).

بين الاستحباب والوجوب

إن كون طلب رتبة " سيد الشهداء" عمل مستحب في حق الأعيان، لا يعود بالإبطال علىٰ قضيتنا "وجوب إظهار الأهداف الكبرىٰ"، لأننا لا نلوم أحدا ما، علىٰ ترك مستحب ما. إنما نلوم علىٰ ما يلي:

عدم معاملة المستحب بمقتضىٰ رتبته، فيحث عليه، ويطلب، ويمدح فاعله، ويعاتب المرء نفسه علىٰ تقصيره فيه. إذ قد ألبس ترك هذا المستحب ثوب الحكمة، وألبس التواصي بتركه ثوب النصيحة، وألبس أهل هذا المستحب ثوب الغرارة، وربما ثوب مستجلبي المفاسد ومضيعي المصالح.

تجاهل أن المستحب علىٰ الأعيان، واجب علىٰ الجملة. كما قرر علماء الأصول، إذ لا يجوز لأمة الخيرية .. الأمة الشاهدة علىٰ غيرها من الأمم .. لا يجوز لها أن تترك كلها مستحبا، فلا يظهر فيها. قال الشاطبي في "الموافقات": "إذا كان الفعل مندوبا بالجزء كان واجبا بالكل ... فالترك لها جملة مؤثر في أوضاع الدين إذا كان دائما"[1]. بل إن إظهار الحق في الأرض من الواجب الكفائي، الذي إذا لم تتم كفايته، يأثم كل قادر بحسب قدرته، كما تقرر في علم أصول الفقه .. فمن سيسعىٰ لرفع الإثم عن نفسه ..؟!

1- الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي (1 / 132 : 133) ط.دار المعرفة (بيروت).

خصوصية القدوات

أيها العلماء والقادة .. أيها الدعاة والموجهون .. إن هذا الواجب مناط بكم.. لا بغيركم .. فلا تتلفتوا حولكم، ولا تنشغلوا بطلب مباح، كانشغال بقية المؤمنين. فإن للرتبة حقا علىٰ صاحبها، والتفريق بين القدوات وغيرهم مؤصل في شرعنا.. مطبق في تاريخ أمتنا ..

والتخيير الرباني الذي وجه لأمهات المؤمنين في سورة الأحزاب: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما﴾[1] حقيقته ممتدة في الأمة ..

فالدنيا المباحة، والتي استمتع بها نساء المؤمنين، يمكن أن تنلنها، لكن بالنزول عن رتبة "أزواج النبي ﷺ" .. بالتراجع عن موقع القدوة .. بالتضحية بالقرب منه ﷺ ..

وأنتم كذلك .. إن لم تكونوا أهل البذل والتضحية .. لتكونوا الأقرب إلىٰ النبي ﷺ.. فتكونون بذلك قدوات للمؤمنين .. فضحوا بالقرب والرتبة، وانزلوا

1- [الأحزاب – 28 : 29].

إلىٰ المباح .. لكنكم لن تخلفوا أبا بكر الصـديق من الصـحابة .. ولا عمر بن عبد العزيز من التابعين .. ولا أحمد بن حنبل إمام السنة .. فاختاروا لأنفسكم ..

ولا بديل عن تبني الأهداف، إلا .. الانتحار الدعوي

فالداعية حين يتشاغل عن قضايا الأمة المصيرية، كالخلافة الغائبة، والشريعة المحاربة، والمقدسات المحتلة، والثغور الملتهبة، وغيرها من النوازل الكبرىٰ ... ويرضىٰ فقط باللعب في حدود المسموح به والآمن، كقصة رقيقة، وموعظة لطيفة، وقضية وهمية يحارب فيها أعداء منقرضين، أو أطلال أعداء لا يمثلون التحدي الأخطر علىٰ الأمة حاليا، ونحوها ... يمارس انتحارا دعويا ...

والداعية حين لا يكون صوتا للحق، ونصرة للمظلوم ... بل ينتقل ليكون تشويشا علىٰ الحق، ولو بتدليس هو دون الكذب الصريح. وينتقل إلىٰ تسويغ ظلم، ولو بأوهىٰ تأويل. ويهمل المظلوم في أحسن أحواله، ويجلده في أسوئها. حين يفعل ذلك ... يمارس انتحارا دعويا ...

والداعية حين يغير المواقف والمبادئ الشرعية الثابتة، ليتواءم مع أوضاع جديدة، ربما تكون قهرا يغل اليد، وربما تكون مكتسبات توضع في اليد. فيتحرك البدن واللسان ليكون في صف عدو للإسلام، يسبغ عليه شرعية مدعاة. بينما هو يطعن في نسبة الشرعية لأصحابها الأصليين، الذين هم أحق بها وأهلها. ويوهم غيره أو يتوهم في نفسه، أن قلبه في صف أهل الإيمان. لكنها حكمة الكبار، ومصالح الصغار، هي التي صنعت تلك الازدواجية – كما يظنها –. حين يتغير هكذا ... يمارس انتحارا دعويا ...

وأخيراً:

أرجو أن تكون هذه الإضـاءة القرآنية، حياة لأرواح المؤمنين، ورفعة لقلوب الصـادقين، ونوراً لأبصـار المهتدين، في زمن غربة و اسـتضـعاف، وحال ظلمة والتباس، وصدق الله: ﴿الذي أرسل رسوله بالهدىٰ و دين الحق ليظهره علىٰ الدين كله و لو كره المشركون﴾[1] والحمد لله رب العالمين.

1- [الصف - 9].


قواعد في التغيير

قواعد في التغيير

بما أن قضية التغيير من قضايا السياسة الشرعية، فإن لها منطلقاتها الإيمانية، ولها ضوابطها الشرعية، ولها مستجداتها الواقعية، إذ هي مثل أكثر قضايا السياسة الشرعية تتعامل مع الواقع المتغير والمتداخل، وتراعي كلا من متغيراته ومتداخلاته، لتحقيق أكثر المصالح الشرعية (الدينية / والدنيوية) وللحفاظ عليها، و (لمنع / أو تقليل) ما يضادها من المفاسد.

لذلك سيكون كلامنا عن جملة من القواعد التأسيسية، التي رأينا الحاجة داعية إليها في التعامل مع "قضية التغيير"، وذلك من خلال مناقشاتنا مع كثير من المهتمين المتسائلين، الذين يتلمسون طريقا يحيون به أمتهم، ويستردون به هويتها، ويعلون به شريعتها. كل ذلك لأجل المساعدة في تحويل فهم العلم النافع إلىٰ تطبيق بالعمل الصالح،

فننتقل بهذه القضية من التنظير والتأصيل إلىٰ الممارسة والتطبيق، كما يأمر ربنا ﷻ ويحب.

القاعدة الأولىٰ: التغيير الشرعي تحقيق للإيمان

إذ أن شعب الإيمان تسمىٰ إيمانا، فكما سمىٰ الله ﷻ الصلاة إيمانا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: صلاتكم السابقة إلىٰ بيت المقدس. سمىٰ رسول الله ﷺ مجاهدة الباطل وتغيير المنكر إيمانا فقال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[1].

فيدل هذا الحديث العظيم علىٰ ما يلي:

أولا: عظمة مكانة تغيير الباطل في الإيمان، بل في واجبات الإيمان، حتىٰ كان ترك الإنكار بالكلية تركا للواجب تجاه ذلك المنكر في الأرض، وكان بالتالي نقصا في الإيمان الواجب.

---

1 – مسلم (50) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ثانيا: إن هناك ما يجب على المكلف باعتبار الواقع الذي يعيش فيه، فالمؤمن إنسان إيجابي فعال، له أثره في إصلاح الحياة من حوله، وذلك مرتبط بدرجة إيمانه، لذلك حكم على من قام بالواجب عليه من الجهاد بأنه "مؤمن".

ثالثا: واقعية الشريعة، التي تتبدى في عدد من النقاط:

1) إن الشرع نزل للحياة الإنسانية، لا الحياة الملائكية، فهو لم يتنزل لواقع لا أخلال فيه، بل نزل لإصلاح أخلال الواقع بقدر الإمكان. فوجود الباطل ليس عذرا يسوغ الاعتراف به، أو التعايش معه، بل هو سبب للسعي في تغييره.

2) وحين يلزمك الشرع بتغيير الباطل في الأرض، فإنه لا يلزمك إلا بما تقدر عليه من ذلك التغيير ووسائله، ويعفو عنك فيما وراء ذلك، مراعاة للإمكانات الواقعية، المتأثرة بالفرد وبحاله وبما يحيط به.

3) ثم كانت الواقعية في ترتيب الذكر، حيث جاء بعكس الترتيب العملي، مراعاة لمراتب التأثير، وتأكيدا على قيمة القوة في الواقع، إذ الأقوى أثرا في إصلاح الحياة هو التغيير باليد، لذلك قدم ذكره، مع أنه آخر ما ينفذ، بعد استنفاد ما قبله مما هو أيسر منه من الوسائل. ثم اللسان الذي قد يستجاب له، أو لا يستجاب. ثم القلب الذي لا يتعدى أثر الإنكار به صاحبه الذي أنكر فقط.

أهداف مراتب التغيير:

أولها: التغيير باليد: هدفه المحافظة على الواقع (ليبقى / أو ليصير) كما يجب أن يكون، مع المنع لمحاولات فرض لوث الباطل على وجه الحياة الإنسانية.

إذ ليس هدف القوة أبدا إجبار الناس على الهداية، فهذا مستحيل، لأن الهداية قرار فردي ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴾[1]، لكنها تهدف إلى إزالة العوائق التي تحول بين الناس وبين الاستماع إلى كلمة الحق، لذلك نحمي بها الكافر حتى يسمع كلمة الإيمان، ثم نترك له الخيار، فإما أن يؤمن وإما ألا يؤمن ﴿وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾[2] فإبلاغ الحق هدف يستحق الحماية بالقوة، بغض النظر عن استجابة المكلفين للحق، أو إعراضهم عنه، بعد حصول البلاغ.

كما أن القوة لا يمكنها أبدا أن تمنع الفساد الشخصي، الذي قد يستتر صاحبه به، فإن الإنكار - كما قرر أهل العلم - إنما هو للمنكرات المعلنة التي يراها الناس «من رأى منكم منكرا». لكن الإنكار بالقوة يهدف إلى منع الإفساد في الأرض، لأن

1 - [التكوير - 28].

2 - [التوبة - 6].

الإعلان دعوة وإغراء بالفساد، فمن هنا وجب التصدي له بما يمكن من درجات الإنكار المذكورة.

ثانيها: التغيير باللسان: هدفه المحافظة على المبدأ، من خلال إظهار الحق وإثبات شرعية وجوده وإن غاب وقتا ما، ومنع الباطل من شرعية الوجود وإن بقي وقتا ما، ليبقى الحق حقا محبوبا ومطلوبا، والباطل باطلا مكروها ومطلوب الإزالة. فإنه ليس من شرط قول كلمة الحق أن يستجيب الناس لها، بل إنهم قد يستجيبون، وقد لا يستجيبون، ومع ذلك يبقى جهاد اللسان "إيمانا".

بل يبقى جهاد اللسان – وإن لم يستجب له – أعلى من مجرد جهاد القلب، لأن له أثرا في دنيا الناس يتعدى صاحبه، إذ يمنع الباطل من أن يلبس ثوب الحق أمام الناس لمجرد أنه قد فرض وجوده، أو لأن الباطل قد رفع صوته بأنواع الشبهات المحرفة للحقائق. فجهاد اللسان خطوة لا يمكن تجاوزها في الطريق إلى إقامة الحق في الأرض، ولهذا سماه النبي ﷺ تغييرا "فليغيره بلسانه".

ويجب التغيير باللسان قبل الانتقال إلى اليد، كما يجب إبلاغ الدعوة قبل الجهاد بالسنان، لكي تكون القوة ناصرة للمبدأ، لا بديلا عنه، ولكي يكون استعمالها حيث لا يجدي ما هو أيسر منها. وهذا يفسر لنا تناقل العلماء لما روي عن علي بن المديني: "إن الله أيد هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد بن حنبل

يوم المحنة" مع أن جهاد أبي بكر كان باليد، وجهاد ابن حنبل كان بالكلمة، وبهما حفظ الدين.

يدل علىٰ قيمة كلمة الحق، أن صـراع المشـروعية قد يكون أخطر من صـراع الوجود، ولعله لهذا كان جنس البدعة - بما فيها من تحريف للحق وإلباس للباطل ثوبا من الشـرعية - أخطر من جنس المعصـية - التي هي وجود للباطل، لكن دون شرعنة له - (ولا يخفىٰ أن الكلام عن الجنس خلاف الكلام عن الأعيان، فليست أي بدعة ولو كانت صغيرة، أسوأ من أي معصية ولو كانت كبيرة، لكن لو استويا في الدرجة فالبدعة أسوأ بسبب خطورة جنسها مقارنة بجنس المعصية).

بل ويكفي في تقدير قيمة هدف الإنكار بالكلمة، أن تسـترخص فيه الأرواح، ويُنال بهذه التضحية أعلىٰ المنازل الإيمانية، منزلة (سيد الشهداء)، ففي الحديث: «سَـيِّدُ الشُّـهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَىٰ إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ»[1] فلولا عظيم قيمة ما قام به من تضـحية، وأهمية الأثر المترتب عليها، لما كان فيها مثل هذا الوعد الرباني الكريم.

ثالثها: التغيير بالقلب: هدفه المحافظة علىٰ الفرد نفسـه، علىٰ إيمانه الواجب، وعلىٰ مبادئه الصحيحة، وعلىٰ مشاعره السوية.

---

1 - حسن، رواه المنذري في الترغيب والترهيب (3483) عن جابر بن عبد الله ﷺ.

وإنما كان التغيير بالقلب «أضعف الإيمان» لأنه أضعف من غيره من جهة الأثر المتعدي، لكنه مأمور به لأن له قيمة هائلة من جهة الأثر الشخصي علىٰ مستوىٰ إيمان الفرد المؤمن، فهو الذي يحافظ علىٰ إيمانه، ويمنع من أن يُستدرج الفرد إلىٰ باطل ينافي إيمانه - ولو بدرجة من الدرجات -، أو أن يذوب في واقع يخالف إيمانه لمجرد أنه يحيط به ويخالطه رغما عنه.

إن جهاد القلب هو تحقيق الإيمان، حين لا يقدر الفرد علىٰ أكثر منه، وهو الذي إن غاب كان ذلك نقصا فيما وجب علىٰ الفرد من إيمان تجاه ذلك المنكر، إذ لا عذر في تركه، فالكل يقدر عليه، كما أنه لا سلطان لأحد علىٰ القلب حتىٰ في أعتىٰ صور الإكراه علىٰ الدين، لذلك ورد في العذر: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ شرط هام: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ واستثني من العذر: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾[1].

كما أن جهاد القلب هو الأصل الذي يبنىٰ عليه غيره من جهاد اللسان واليد، إذ هو الباعث عليهما، وإلا فلو تجردا عن هذا الأصل لم يكونا جهادا في سبيل الله. ولو فقد جهاد القلب، فقد قطع أول الطريق علىٰ ما بعده من جهاد اللسان واليد. فهو الخطوة الأولىٰ التي لا يمكن تجاوزها في التغيير، والتي بحسبها تكون قيمة ما

1- [النحل - 106].

بعدها من الخطوات، والتي لا بد من تعزيزها وحفظها كمحرك أ صيل للتغيير مهما طال الطريق.

إن جيلنا لا يزال يذكر مؤتمر مدريد للسلام (1991م.) بين دولة الصهاينة وزعماء الدول العربية المحيطة بها [الفلسطينيين، والأردن، وسوريا، ولبنان] والذي قيل عن هدفه وقتها - بحق - إنه (ليس إنهاء حالة الحرب) فلم تكن هناك حرب قائمة بين أي من جيوش هذه الدول وبين الجيش الصهيوني، لكن هدفه كان (إنهاء حالة العداء) بين المجتمعات المسلمة وبين الشعب الصهيوني، والوصول إلىٰ مرحلة (تطبيع العلاقات).

كما أننا لا نزال نذكر قبل ذلك واحدا من أهم أسباب ذلك المؤتمر، إنها الانتفاضة الأولىٰ علىٰ أرض فلسطين المباركة، والتي سميت بـ (انتفاضة أطفال الحجارة - 1987م.) لقيامها علىٰ الشباب، ولخلو أيديهم في تلك المرحلة من السلاح غالبا، فكانوا يواجهون القوات الصهيونية بقذف الحجارة. ورأينا صمود حجارتهم أمام الدبابة والمدرعة، ورأينا كيف هرب من حجارتهم جنود مدججون بالسلاح.

هل كانت تلك الانتفاضة تعرضا للقتل والأسر والإصابة بلا ثمن مكافئ؟ وهل كان أولئك الذين أ شعلوها يضحون بأنفسهم وأهليهم بلا هدف يستحق؟ أم

أنهم ظنوا أن حجارتهم تلك ستحرر الأرض أو ستثخن في العدو ؟.. ربما هكذا توهم البعض، أو زعموا .. لكن الحقيقة كانت شيئا آخر.

لقد كان الهدف الأعلىٰ لتلك الانتفاضة هو إحياء العداء، الذي هو جهاد القلب وإنكاره، المنتج للثورة ضد الاحتلال، وكسر حال التعايش مع الاحتلال الباطل، الناشئ عن طول الإلف والمخالطة من جهة، وعن الشعور باليأس من إمكانية الحل من جهة أخرىٰ. فلما انتفض الشباب وردّ الصهاينة بقسوة، انحازت كل فئة من الناس إلىٰ معسكرها، وأحييت قضية الصراع بين المسلمين والصهاينة في الأرض المقدسة، وكان هذا الإنجاز هو الأرضية التي قامت عليها كل خطوات المقاومة التالية وإلىٰ يومنا هذا. فقد كانت الحجارة هي الشرارة التي أوصلتنا إلىٰ مرحلة الصاروخ، ولولا البداية التي هيأت الواقع للسير في طريق جهاد الاحتلال، لما وصلنا لما وصلنا إليه الآن، ولما كانت آمالنا ترتقي إلىٰ ما نحب من النهاية.

إن الإيمان هو سر الحياة ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1] فلا حياة إلا بمقدار تحقيق الاستجابة للإيمان عموما، وفي تحقيق الجهاد (الذي هو تغيير للحياة بمقتضىٰ الإيمان) خصوصا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

1- [الأنعام - 122].

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] - كما ذكر الإمام ابن القيم في كتاب الفوائد -وإن «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[2] كما قرر النبي ﷺ.

1- [الأنفال - 24].

2- مسلم (2699) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

القاعدة الثانية: وسائل التغيير شاملة، وغير توقيفية

فإن الواقع الذي نسعىٰ لإصلاحه واسع ومتنوع، تتعدد فيه أشكال الباطل، وتتفاوت و سائل (إيجاده/ أو دعمه)، كما تتنوع صفات أهل هذا الواقع المؤثرين فيه وتتفاوت. لأجل ذلك لم يجعل الشرع للتغيير وسيلة واحدة لازمة دائما، بل جعل في مقابل كل انحراف ما يكافئه من وسائل الإصلاح (باليد / أو باللسان).

إن الأصالة والجدية التي لقضية التغيير في الإسلام تفرض هذا الشمول، وإلا كان تغيير الحياة بمقتضىٰ الرسالة أمنية جميلة لا مجال لتحقيقها في الواقع. فمن الباطل ما يزول بالتعريف اللطيف، ومنه ما يزول بالموعظة البليغة، ومنه ما لا يزول إلا بالتهديد، بل منه ما لا يزول إلا باستعمال درجة من درجات القوة العنيفة. والشرع الذي يريد تغيير كل باطل، لا يمكنه أن يقتصر علىٰ بعض الوسائل، التي لن تعطيه إلا بعض التغيير لا كله.

كما أن الحرص علىٰ هدف التغيير، يلزمنا بتحري مختلف العوامل المؤثرة (المعينة / أو المضادة)، فلا تختزل و سيلة مثل الدعوة في طريقة واحدة، لذا حكىٰ ربنا عن أول رسول إلىٰ أهل الأرض قوله الذي يبين فيه تنويعه لطرائق الدعوة سعيا في هداية قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ

وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[1] وعلىٰ هذا يقاس الأمر، فإذا عرف مقصود الشرع سلكت أوصل السبل إليه.

ولا نتجاوز مع هذا الشمول الواقعي، مراعاة الإحسان والرحمة والرفق أثناء سعينا لإصلاح الحياة، ففي الحديث: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، وَيُعْطِي علىٰ الرِّفق ما لا يُعطي عَلىٰ العُنفِ، وَما لا يُعْطِي عَلىٰ مَا سِوَاهُ»[2]. وقد سبق أن ذكرنا ما قرره أهل العلم - بلا خلاف بينهم – أن ترتيب الذكر في حديث التغيير (اليد ثم اللسان ثم القلب) هو عكس ترتيب التطبيق الشرعي له [وسبق بيان حكمة ذلك] فأول الإنكار القلب وآخره اليد، بل كل رتبة من رتب التغيير تتضمن ما سبقها وزيادة. ولا يصار إلىٰ رتبة إلا بعد اليأس مما قبلها مما هو أيسر منها في الوصول إلىٰ المطلوب.

ثم إن هذا الذي قررناه ينبني عليه أمران كبيران:

الأول: وجوب قبول كل وسائل التغيير المشروعة، وعدم الاقتصار علىٰ قبول بعضها فقط.

1- [نوح - 5 – 9].

2- مسلم(2593) عن عائشة ﵂.

وإنما ذكرنا وجوب القبول، وليس بالضرورة وجوب الممارسة، لأسباب قد تتعلق بالفرد أو بالفئة أو بالظرف (زمانا / ومكانا / وحالا). فقد لا يستطيع المؤمن ممارسة رتبة معينة من رتب التغيير في ظرف معين، لكن ذلك لا ينبغي أن يكون ذريعة لرفضها، سواء أكان ذلك الرفض علميا علىٰ مستوىٰ التنظير، أو عمليا علىٰ مستوىٰ التطبيق (في موطن التطبيق).

لأننا نتدين لله بقبول كل ما شرع من وسائل التغيير، فلا نسمح لواقعنا مهما ناله من ضعف أن يعود علىٰ إيماننا بالنقص أو بالتحريف. كما أن الواقع يرد عليه اختلاف الأحوال، فقد يتاح في ظرف أو يجب، ما لم يكن متاحا ولا واجبا في ظرف آخر قبله، فلا يقبل أن نبقىٰ أسرىٰ ظرفنا الأول ووسائلنا الأولىٰ، ونقصر في واجب الظرف الذي قد أتيح تطبيقه.

فالذين اعتمدوا (الممارسة الدعوية) - مثلا - وسيلة وحيدة للتغيير، باعتبارها الأصل الذي لا يصلح الأفراد إلا به، ربما حققوا نجاحا كبيرا من خلالها، لكنهم قد يكونون في ثغر من ثغور الإسلام، وقد وجب الجهاد علىٰ الأمة، فيكون هذا الانحصار خصما من رصيد الجهاد الواجب، بل قد يتحولون إلىٰ صمام أمان للأعداء ضد أمتهم، من حيث شعروا أو لم يشعروا [يراجع دور بعض التبليغ في فلسطين في ظل الاحتلال الصهيوني]. مع تسليمنا بأهمية ممارسة الدعوة في كل

مكان، لكن كأصـل داعم للأمة ولكل ممارسـاتها المشـروعة، وليس كبديل لغيرها من الواجبات.

والذين اعتمدوا (الممارســة السـياسـية) - مثلا - وسـيلة وحيدة للتغيير، باعتبارها منازعة في حيز الممكن لتحسين الظرف القائم، ربما استطاعوا أن يزيدوا من مكاسـب الأمة الدينية والدنيوية في بعض الأماكن، لكنهم باقتصـارهم عليها في بعض ثغور الجهاد، قد يتحولون إلىٰ أداة يمرر بها العدو ظلما و باطلا، فيكونون هدما للمكتسبات الصلبة، ويستغفلون بمكتسبات هشة، سرعان ما يفقدونها مع عدم الحاجة إلىٰ دورهم ضـد أمتهم [يراجع دور بعض الإخوان في العراق في ظل الاحتلال الأمريكي] . مع تسـليمنا بأهمية الإدارة السـياسـية لكل عمل عموما، ولجهاد الأمة ضد أعدائها خصوصا، لكن كتوجيه واستثمار لكل ممارسة مشروعة، لا كبديل لغيرها من الواجبات الشرعية.

والذين اعتمدوا (الممارســة العسـكرية) - مثلا - وسـيلة وحيدة للتغيير، باعتبارها مكافئة للقوة العسـكرية التي يعتمد عليها الأعداء، فلا تحسـم المعركة ضدهم إلا بها، ربما استطاعوا أن يحققوا نجاحات في بعض الثغور، لكن اقتصارهم عليها مع اختلاف الظروف وفقد مقومات النجاح، ربما أدىٰ لاسـتنزاف الكثير من الإمكانات، وإهدار الكثير من التضـحيات، ثم الاصـطدام بأسـوأ النتائج الواقعية [تراجع نتائج خيار حرب العصـابات في مصـر ضـد نظام مبارك - ولو من البعض،

ولو علىٰ سبيل مقابلة بطش النظام - بعد نجاحه في أفغانستان] . مع تسليمنا بأهمية القوة لكل حركة تغييرية عموما، وإن كانت تحت سلطان أعدائها الوجوديين خصوصا، لكنها القوة التي نستخدمها لمصلحتنا، في الظرف المناسب لذلك، بما يجعل لتضحياتنا ثمنا يستحق وهدفا يتحقق، وليست كممارسة دائمة، مهما أدت من دور مضاد لأهدافنا التي نريدها.

إن خطورة عدم الشمول في القبول ليست فقط في الجمود علىٰ وسيلة بعينها، ولا في العجز عن مواجهة وسائل الخصوم المتنوعة، ولا في الشلل أمام تغيرات الواقع التي تستدعي بالضرورة تغيرات سريعة في وسائل التعامل معه، مع أن كل ذلك صحيح. لكن واحدة من أخطر سلبيات الأخذ ببعض المشروع دون البعض الآخر، هي عودة ذلك علىٰ حقيقة الدين بالتحريف، وتسببه في تفريق الأمة إلىٰ فئات متباغضة متعادية في الواقع، كما ذكر الله عمن قبلنا: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾[1]، وشرحه قديما شيخ الإسلام ابن تيمية[2].

ثم إن التنازع بين من يجب أن يتناصروا من أسباب فشلهم جميعا ومما يضعف من قيمة ما معهم من قوة ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾[3] لهذا

1- [المائدة - 14].

2- مجموع الفتاوىٰ (1/ 14-17).

3- [الأنفال - 46].

كان التنازع مع طلب الانتصار من ضعف العقل ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[1] فهو نقص عقل قبل أن يكون نقص دين أيضا.

الثاني: التعامل مع كل الوسائل المتاحة بالضوابط الشرعية، وعدم توهم توقيفيتها.

لأنها أولا من جنس (العاديات) لا (العباديات)، والتوقيف مختص بالعباديات التي لا يعقل الناس منها غير معنىٰ التعبد المحض، فالأصل فيها المنع إلا بدليل ينقلها إلىٰ حيز المشروعية. بخلاف العاديات التي يعقل الناس مصالحها الدنيوية، ويقصدونها لأجلها، فإنها وإن شرع التعبد بها لله أيضا، لكن الأصل فيها الإباحة، ولا يصار إلىٰ منع شيء منها إلا بدليل.

ثم إن الإباحة التي يستوي فيها الفعل والترك إنما تكون باعتبار الأصل، ثم تؤثر عليها المقاصد والمآلات، فيكون للوسائل أحكام المقاصد. ويكون للوسيلة التي تعينت في أحد الظروف حكما لا يكون لغيرها مما له في واقعه بدائل أخرىٰ، فلا يكفي النظر لها وحدها في الحكم عليها في كل مرة.

وكثيرا ما تتداخل أسباب الطلب الشرعي مع أسباب المنع الشرعي في الفعل الواحد، من جهتين مختلفتين في النظر، لكنهما متلازمتان في الواقع المعين. فنكون

1- [الحشر - 14].

أمام موضـــع من مواضـــع التعارض والترجيح، والتي تحتاج إلىٰ اجتهاد قائم علىٰ رســوخ في العلم بما يقدمه الشــرع من المصــالح في المواضــع المختلفة، مع تمييز لمعطيات الواقع محل الفتوىٰ، ليتم إنزال الحكم علىٰ مناطه الصحيح.

بل كيف يدعىٰ في وســـائل التغيير القول بتوقيفيتها، مع تســـميتها (وســـائل)؟ وهل قال أحد من أهل العلم بأن وســـائل العلم توقيفية؟ وهل يتخيل أن يقول أحد من العقلاء إن وســـائل الجهاد توقيفية؟ إلىٰ آخر ما يمكن أن يدخل تحت اســـم وسائل التغيير؟

وأســـئلة أخرىٰ لا تغيب: هل كل دعوة تقوم يلزمها أن تمر بمرحلتي الســـرية والجهرية؟ وهل يلزمها الوقت الذي قضـــاه النبي ﷺ في كل منهما؟ وهل يتعين طريق طلب النصـرة الذي سـلكه ﷺ للانتقال إلىٰ مرحلة الدولة الإسـلامية؟ أم أن هذه كانت ممارسات مرتبطة بواقعها، وتتغير مع تغير الواقع الذي تتعامل معه؟

إن الدين قد كمل، والشرع قد تم، بتفاصيله فيما يناسب فيه التفصيل الدقيق، وبقواعده فيما يناسب فيه التقعيد الكلي، لأنه تشريع صادر عن كمال علم بالإنسان وبأحواله وما يصلحها، في الماضي والحاضر والمستقبل، وكمال حكمة تمنع من خلاف الأولىٰ في العلم والعمل، وكمال عدل يمنع من ظلم العبد من أي وجه، بل يراعي ما أعطاه ربه وما قدره عليه في كل ما يطالب به وجوبا أو اســـتحبابا، وكمال رحمة تغلب العفو والتيسير في استجلاب المصالح ودفع المضار.

ولا يؤتىٰ العبد إلا من جهله بربه أو بأمر ربه، فيعنت نفسه، ويضيق ما يحتمل اتساعا، ويصيب نفسه بشلل يعجزه عن التعامل مع واقعه، ثم ينسب ذلك بغير حق لشــرع ربه ﷻ. والتاريخ شــاهد علىٰ أولئك المضــيقين، إن الحياة قد تجاوزتهم وتجاوزت تضــييقهم، بل إن أكثرهم لم يســتطع الالتزام بتضــييقاته أمام حاجات الحياة في ظل واقع ضــاغط، فصــار يناله الذم بالخروج عمليا عما قرره علميا ثانيا، بعد خلله العلمي في التضــييق أولا [راجع - مثلا - عدم اســتجابة علماء الأزهر للخديوي إســماعيل في تقديم مجموعات تشــريعية مقننة مســتمدة من الشــريعة الإسلامية، مما كان ذريعة لإدخال القوانين الأوربية في مصر كما ذكره أ.عبدالقادر عودة في (الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه)].

فالحاصل أن باب وسائل التغيير باب واسع، والأصل أن تتعاضد الوسائل ولا تتعارض، وأن تتكامل ولا تتخاذل، والأمة بمجموعها هي التي تقدر أن تقيم الدين بمجموعه، ثم الناس بعد ذلك علىٰ درجات، والموفق من وفقه الله ﷻ.

القاعدة الثالثة: التغيير حركة شرعية، تتسم بسمت (المثالية / الواقعية)

ذلك أنها حركة مهدفة، أي: إنها تقصد حصول مطلوبها في الواقع. فلا بد أن يكون الهدف المطلوب يجمع بين القبول شرعا – ولو على سبيل الاستثناء –، وبين أن يكون ذلك في حيز الممكن واقعا في الظرف المعين المطلوب التغيير فيه .

فإن الله إنما شرع تغيير المنكر ليحصل بديله من المعروف الذي يحبه الله ﷻ ويرضاه – كما قرره ابن القيم في إعلام الموقعين –، فليس التغيير مقصودا لذاته، بل هو مقصود لغيره، لذا كان حكم التغيير مرتبطا بثمرته (طلبا / أو منعا).

والثمرة التي ينبني عليها حكم التغيير، ليست فقط هي الهدف المرجو تحقيقه، لكنها بالإضافة لذلك تشمل المآل الذي يترتب عليه – ولو لم يكن هو المقصود، بل ولو كان من فعل الغير – . لأن المكلف مسئول عن مآلات أفعاله الاختيارية باعتبار تسببه فيها، لذا كان النهي الشرعي: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1].

وعندما نتكلم عن المآلات التي تترتب على التغيير، فنحن لا نتكلم عما ينبغي أن يكون بغض النظر عن معطيات الواقع، وبمعنى أوضح وأوسع فنحن لا نتكلم

1– [الأنعام – 108].

عما يمكن أن يقع باعتبارات الا ستطاعة البـشرية التي هي مناط التكليف الـشرعي، بل نحن معنيون بمعطيات الواقع القائم وبما يمكن في ظل ما ينتظر من أهل هذا الواقع بخيرهم وشــرهم، وبما يثابون عليه أو حتىٰ بما يأثمون عليه، فالذي يحدد المآل هو ما يكون بنســـب احتمال واقعية وليس ما ينبغي أن يكون من الناحية الشرعية.

وبناء علىٰ هذه المآلات التي ذكرناها تتنوع أحكام التغيير، فمن يجمع في فعله بين معروف ومنكر – فردا كان أو فئة – بشكل متلازم، فإما أن يفعلهما جميعا أو أن يتركهما جميعا، لا ينظر قبل أمره ونهيه إلىٰ أنه مأمور بفعل المعروف ومنهي عن فعل المنكر – مع أن هذا حق بلا شك – . بل قد ينظر إلىٰ غلبة المنكر، فيكون أمره بالمعروف الذي يلازمه سببا في حصول المنكر الأكبر، فيكون أمره ممنوعا شرعا. كما قد ينظر إلىٰ غلبة المعروف فيكون نهيه عن المنكر الذي يلازمه ســببا في فوات المعروف الأكبر، فيكون من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته – كما يقرر ابن تيمية في رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر –.

ولذلك منع ابن تيمية من كانوا معه عن نهي التتار عن شرب الخمر، مع تغليظ تحريم شـرب الخمر، وعلل ذلك بأن تحريم شـرب الخمر لأنها تصـد عن ذكر الله وعن الصــلاة، أما هؤلاء فإن الخمر تصــدهم عن قتل النفوس وســلب الأموال،

فيحرم نهيهم عن منكر يترتب على تركه في الواقع المعين منكر أكبر منه، لأن العبرة هنا بالمآل، وحكم التغيير مرتبط بهدفه وبما يترتب عليه كما قررنا.

فالعقل الذي يقارن ويرجح هنا هو العقل الشرعي، الذي يزن بميزان الشرع الذي أنزله الله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾[1] "فالكتاب هو النص، والميزان هو العدل. والقياس الصحيح من باب العدل، فإنه تسوية بين المتماثلين وتفريق بين المختلفين" كما قال شيخ الإسلام[2] و "إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد. فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له؛ فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورا به، بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته؛ لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام"[3].

1- [الشورى - 17].

2- مجموع الفتاوى (19/ 288).

3- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (12 – 13).

ونحن فيما ذكرنا لا نقيم العقل في مقابل الشرع، بل نتعامل بالعقل الذي اعتبره وبنىٰ عليه الشرع، فمما تقرر عند أهل العلم أن علم أصول الفقه يستمد من ثلاثة:

الأول: الشرع، إذ هو أصول لفقه الشرع.

الثاني: لغة العرب، إذ جاء الشـــرع بلغة العرب، فيفهم خطابه علىٰ مقتضـــىٰ لسانهم.

الثالث: العقل، إذ جاء الشـــرع بلغة العرب مخاطبا العقلاء، فيفهم كما يفهم العقلاء الخطاب.

لهذا كانت هناك قواعد أصـــولية عقلية، كقاعدة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) وغيرها، والتي يقر بها العقل بداهة، ولو حاول البعض الاســـتدلال عليها، لكان استدلاله أصعب من القاعدة نفسها، التي هي أوضح عند كل ذي عقل سليم [والاستدلال موجود في بعض الكتب، لمن أراد التأكد مما قلت].

ولعله لهذا مال ابن القيم إلىٰ ترجيح رأي الصـــحابة الذين لم يؤخروا صـــلاة العصر ليصلوها في بني قريظة، بل صلوها في الطريق وهم مسرعون إلىٰ بني قريظة، فنقل مع ضدا القول بأنهم "حازوا قصب السبق، وكانوا أسعد بالفضيلتين، فإنهم بادروا إلىٰ امتثَال أمره في الخروج، وبادروا إلىٰ مرضـــاته في الصـــلاة في وقتها، ثم بادروا إلىٰ اللحاق بالقوم، فحازوا فضيلة الجهاد، وفضيلةَ الصلاة في وقتها، وفهموا

ما يراد منهم، وكانوا أفقه من الآخرين، ولا سيما تلك الصلاة، فإنها كانت صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطىٰ بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح الذي لا مدفع له ولا مطعن فيه، ومجيء السنة بالمحافظة عليها، والمبادرة إليها، والتبكير بها، وأن من فاتته فقد وتر أهله وماله، أو قد حبط عمله، فالذي جاء فيها أمر لم يجئ مثْله في غيرها، وأما المؤخرون لها، فغايتهم أنهم معذورون، بل مأجورون أجرا واحدا لتمسكهم بظاهر النص، وقصدهم امتثَال الأمر، وأما أن يكونوا هم المصيبين في نفس الأمر، ومن بادر إلىٰ الصلاة وإلىٰ الجهاد مخطئا، فحاشا وكلا، والذين صلوا في الطريق، جمعوا بين الأدلة، وحصلوا الفضيلتينِ، فلهم أجران، والآخرون مأجورون أيضا رضي الله عنهم."[1] بل قرر أن "هؤلاء سلف أهل الظاهر، وهؤلاء سلف أصحاب المعاني والقياس"[2].

بناء علىٰ ماسبق نطرح سؤالا هاما في ظل واقعنا المعاصر: هل يمكن أن تكون هناك حركة شرعية من واقع غير شرعي إلىٰ واقع آخر غير شرعي أيضا؟.. والجواب: نعم، إذا كان الثاني أفضل من الأول، ولم يكن متاحا ما هو أفضل منه في الظرف المعين للحركة. "بل ذلك ثابت في العقل، كما يقال: ليس العاقل الذي

1- زاد المعاد (3/ 119).

2- إعلام الموقعين (1/ 156).

يعلم الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين و شر الشرين" كذا قال شيخ الإسلام[1].

فقد شـرعت الهجرة من مكة إلىٰ الحبشـة، مع أن كلا منهما دار كفر في وقت الانتقال، لأن النجا شي لم يكن قد أ سلم بعد. لكنه مع غياب دار للإ سلام في تلك اللحظة، كان هذا أفضـل ما يمكن، إذ كان انتقالا من دار كفر وظلم إلىٰ دار كفر وعدل، ولم تكن القسمة ثنائية: إما دار كفر، وإما دار إسلام، وفقط.

لذا قرر العلماء أن في الشـر خيارا، فليس عدم المشـروعية حكما يسـتدعي التسـوية بين كل ما هو غير شـرعي، وليس الباطل كله شـيئا واحدا، والله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴾[2] فهناك عذاب علىٰ الكفر، وعذاب فوقه علىٰ الصـد عن سـبيل الله، وليس كل الكفار سواء، مع اشتراكهم في حكم الكفر.

إن العقلية المثالية الحدية، التي تعتمد الثنائية التصـنيفية، فإما ما هو شـرعي ومقبول، وإما ما هو غير شرعي وغير مقبول، وبالتالي فالانتقال إليه لا يمثل شيئا – مع أنه في الحقيقة يمثل مكسـبا جزئيا، في ظل عدم القدرة علىٰ تحصـيل المكسـب الكلي – إنها في الحقيقة تتجاوز أدلة الشـرع والواقع جميعا. فقد يكون الانتقال من

1 – مجموع الفتاوىٰ (20/ 54).

2 – [النحل – 88].

وضع غير شرعي إلىٰ وضع آخر غير شرعي، لكن التغيير والانتقال والحركة تكون شرعية، لما قللته من الشر في حيز الممكن واقعيا، وهذا من معالم (المثالية/ الواقعية).

أما الوجه الآخر لهذه القاعدة، فهو (السعي نحو المطلوب في الواقع) وعدم الرضىٰ بالوقوف مع (الممكن في الواقع)، وإلا تحولت المكتسبات إلىٰ عقبات في طريق التغيير المنشود، بدلا من أن تكون وسيلة لتحسين الظرف، وسببا لتحويل غير الممكن إلىٰ حيز الممكن - ولو بالتدريج -.

إن أمثل ما يمكن في الواقع في الظرف الحالي، إنما قبلنا به بديلا عن واقع هو أسوأ منه، ولا يجوز أن نرضىٰ به بديلا عن واقع مثالي مطلوب شرعا هو الأفضل، بل هو بالأصالة المطلوب النهائي من التغيير الشرعي. فكما أن الضرورات والحاجات معتبرة، فهي كذلك تقدر بقدرها، كما أن السعي في إزالة أسباب الضرورة أو الحاجة واجب شرعا، وهذا أيضا من معالم (المثالية/ الواقعية).

وفي مثل واقعنا الذي يزدحم بمواطن التعارض والترجيح، وتطغىٰ فيه استثناءات الضرورات والحاجات لغلبة الأعداء وفساد الأحوال، لا تستطيع ممارسة التغيير بالنظر إلىٰ الواجب الشرعي المطلوب فقط دون اعتبار لمعطيات واحتمالات الواقع "فالواجب شيء والواقع شيء، والفقيه من يطبق بين الواقع والواجب، وينفذ الواجب بحسب استطاعته، لا من يلقي العداوة بين الواجب

والواقع، فلكل زمان حكم ... ومع هذا فالواجب اعتبار الأصــلح فالأصــلح" كما قال ابن القيم[1].

---

1 - إعلام الموقعين (4/ 169).

القاعدة الرابعة: مراعاة التفاوت بين الموقفين العقدي والسياسي

فكون حركتنا قائمة على السياسة الشرعية يلقي في روع الكثيرين حتمية التلازم بين الموقف السياسي والموقف العقدي، فهل الحقيقة هي هكذا دائما؟..

إننا نجد أن العلاقة بينهما تحكمها مجموعة من المحددات، أهمها ما يلي:

أولا: إن الأصل في الموقف السياسي أن يكون تعبيرا عن الموقف العقدي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾[1]، وهذا هو الأصل الغالب على الحياة والأحياء، وهو يمثل الخط الكبير للابتلاء في الحياة الدنيا ﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾[2]، فلا يمكن تجاوزه إلا مع تحريف حقائق الشرع ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾[3]، والغفلة عن حقائق الواقع ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[4].

ثانيا: لكن ذلك الأصل توجد استثناءات منه في الواقع، لاعتبارات أخرى -غير الموقف العقدي- تغلب عند البعض، فأبو طالب وكفار بني هاشم غلبوا رابطة النسب فحموا رسول الله ﷺ من كفار قريش، ومن أجار النبي ﷺ حتى يدخل

1- [النساء - 76].

2- [محمد - 4].

3- [البقرة - 217].

4- [البروج - 8].

مكة بعد رحلة الطائف كان مشركا، كما إن الذين سعوا في نقض صحيفة مقاطعة المسلمين وبني هاشم كانوا كفارا أيضا، بل كان الدليل في الهجرة النبوية رجلا مشركا، كما أن قبيلة خزاعة حلفاء عبدالمطلب جد النبي ﷺ ظلوا حلفاء نا صحين له ﷺ في الجاهلية والإسلام.

ووجود هذه الاستثناءات (ألا يعاديك في السياسة من هو عدو في العقيدة) من الرحمة التي يفرج الله بها عن عباده، ويتيح لهم بها من الفرص ما لا يتسنىٰ بدونها، فحسن فهمها بما يترتب عليه من حسن التعامل معها يفتح الآفاق، ويخفف التضييق، ويتيح مساحة من الحركة الممكنة بمكتسبات - ولو ضعيفة - في ظل الظروف الصعبة.

بل إن صناعة ودعم هذه الاستثناءات مما هو مطلوب شرعا، إذ هو من جنس تقليل الأعداء المحاربين في الواقع، وتفريق الخصوم، وإضعاف تكتلهم ضد الإسلام والمسلمين - ولو باعتبارات متعددة غير دينية -، ولا تستطيع حركة تغييرية عاقلة أن تتحرك في محيط عام غير متوافق معها إلا بمثل هذه الممارسات التي تزيد من الفرص الاستثنائية للوجود والتأثير، أما ممارسة ضد هذا فهو من الحماقة التي أعيت من يداويها.

ثالثا: وفي ممارستنا نحن أيضا نراعي هذا التفاوت، فبينما يتسم الموقف العقدي بالثبات المبدئي - ولو في أصله علىٰ الأقل -، لبنائه علىٰ حقيقة الإيمان

التي يمثل النقص فيها خللا لا يجوز التهاون معه، يتسم الموقف السياسي بالمرونة اللحظية – وإن كان ذلك في ظل أهداف المبادئ الثابتة –، لبنائه على محددي الاستطاعة والمصلحة في ظل معطيات الواقع الظرفي.

ولذلك تقرر عند علماء السياسة الشرعية أن إمام المسلمين هو الذي يقرر من الذين نحاربهم، ومن الذين نصالحهم، ومن الذين نتاركهم، مع أنهم جميعا ممن تشرع محاربتهم. كما قرروا أيضا أن الإمام مخير في الأسرى من الكفار بين قتلهم، أو مبادلتهم بأسرانا، أو فدائهم بمقابل، أو استرقاقهم، أو حتى المن عليهم وإطلاق سراحهم. ولهذين نظائر كثيرة في تطبيقات السياسة الشرعية، والتي تركت مساحة واسعة لاختيار الإمام في ظل توجيهات ثابتة. وتقرر عندهم أيضا أن كل ما كان مردودا إلى رأي الإمام فهو معلق بالمصلحة، ويجب على الإمام اختيار ما هو الأصلح للمسلمين.

إن وجود الاستثناء هو الذي يدعم حقيقة وجود القاعدة، فلو لم تكن هناك قاعدة لما كان ما يخالفها استثناء. وإن وضع كل واقع في مكانه الصحيح تصورا وتفسيرا، لهو مقدمة ضرورية لصواب تنزيل الأحكام الشرعية، بما يحقق المصالح المحبوبة لله ﷻ في الظروف المتعددة.

القاعدة الخامسة: اعتبار فهم وقبول الأمة للتغيير

فالحركة التغييرية نواتها نخبة رائدة، وقوتها أمة داعمة، وأي نخبة تنعزل عن أمتها فإنها تفقد قدرتها على إحداث أي تغيير حقيقي ومستمر، بل تتحول إلى مجموعة من الحالمين، البعيدين بدرجات عن واقع الحياة، والعاجزين عن تغييره. خاصة ونحن نتكلم عن تغييرات كبيرة وعامة، فإن الدوائر التي يتداخل تأثير الكثيرين فيها، لا يمكن تجاوزهم في حسابات التغيير، مع شدة تأثير ما يمكن أن يترتب على مواقفهم المختلفة تجاه التغيير المنشود.

إنه لا يكفي أن يكون على وجوب هذا التغيير أدلة شرعية، ولا يكفي أنه تكون قناعة الفئة الرائدة المحركة للتغيير به كاملة، ولا يكفي أن يكون عند أفراد الحركة – مهما كثروا – استعداد للتضحية حتى النهاية وبكل غالٍ، إن كل ما سبق على أهميته غير كافٍ. بل لا بد أن نعتبر شيئا آخر، هو من القدرة الشرعية الهامة في التغييرات الكبيرة، والتي بها نستوفي مشروعية الممارسة التغييرية، إنه اعتبار فهم وقبول الأمة، باعتبار أن الأمة هي الحاضن والحامل لهذا التغيير.

هل معنى هذا أننا نوقف تحقيق طاعة الله في الأرض على قبول ناس كثروا أو قلوا؟.. بالقطع لا، لكن تصور المسألة على هذا النحو يشتمل على كثير من المغالطة، فأصل الشرعية لا يكون إلا بدليل الشرع، أما استيفاء شرعية الممارسة فتتعلق بأمرين يتعلقان بالناس، وهما: القدرة، والمصلحة. بل إننا قد سبق وقررنا

كيف يؤثر المآل الواقعي علىٰ حكم التغيير، بما قد ينقله من الوجوب إلىٰ التحريم، أو إلىٰ غيره مما هو أقرب منه. لهذا دل الشــرع علىٰ اعتبار فهم وقبول الأمة في الممارسات الكبيرة، التي تؤثر علىٰ مجموع الأمة، وتتأثر أيضا بهذا المجموع.

فهذا رسول الله ﷺ وهو من هو بين الناس عموما، وبين المسلمين خصوصا، يتحمل من ابن ســلول في المدينة أذىٰ كثيرا، وابن ســلول علىٰ كفره أولا، ثم وهو علىٰ نفاقه مع إظهار الإسلام ثانيا، حتىٰ يصل بنا التاريخ إلىٰ حادثة الإفك، وقد بلغ الإسلام من القوة في المدينة والأرض مبلغا كبيرا، وقد بلغ الإسلام من الرسوخ في قلوب المسلمين مبلغا كبيرا، وعندها يريد النبي - صلىٰ الله عليه و سلم - بحق أن يعاقب ابن سـلول، ويعرض ذلك علىٰ الأنصــار من الأوس والخزرج يطلب منهم عذره في هذه المعاقبة، التي كان ابن ســلول مســتحقا لها من زمن طويل، ثم زاد اســتحقاقه لها بجرمه الجديد الذي ينال فيه من عرض الرســول ﷺ، وهو رســول الله، الذي يعيش بين الصحابة، أعظم هذه الأمة إيمانا. فماذا كان؟

لقد تعصب الخزرج - قوم ابن سلول - الذين يعلمون نفاقه، خلف زعيمهم سعد بن عبادة، لا عن نفاق من سعد ولا من الخزرج، ولكن عصبية بغير حق، من جنس العصــيان الذي يرد علىٰ الناس، ولو مع إيمان وصــلاح، فتثاور الحيان: الأوس والخزرج، وهم أنصــار الله ورســوله ودينه، فنزل النبي ﷺ وســكنهم .. ثم انصرف، نعم .. انصرف وترك ابن سلول وعقابه، لأن مجتمع المدينة الذي نصر

الإسلام في الأرض، لم يكن مستعدا لتقبل هذا العقاب، بل كان الإصرار علىٰ تنفيذ العقاب سـيؤدي إلىٰ تنازع واقتتال داخلي، لا يربح من ورائه إلا أعداء الإسـلام. بأبي هو وأمي ﷺ كم تحمل في معالجة أمر الناس، يرجو نجاتهم وصـلاحهم، ويحتمل زلاتهم ونقائصـهم، حتىٰ كان بحق أكمل الناس وأعظمهم إحسـانا إليهم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

فكيف يسوغ لمن لا يقارب مقامه في الناس مقام رسول الله ﷺ أن يزعم عدم احتياجه إلىٰ مراعاة فهم الناس وقبولهم؟ وأنه يكفيه ما ظهر له من أدلة الشـرع الداعية لممارسـته أيا ما كانت! وأن الناس لا وزن لهم عندما ننفذ أمر رب الناس! في خلط عجيب بين الصواب والخطأ، وفي تنزيل عجيب للحق علىٰ غير مناطه، وفي وهم عجيب يتجاوز سنن الله في البشر .. تلك السنن التي كان يراعيها أعلم الخلق بالله وأخشاهم له وأقربهم منه وأحبهم إلىٰ عباده المؤمنين، رسول الله محمد ﷺ.

لكن ذلك لا يعني أن يعطل كل أمر شـرعي حتىٰ يكتمل تأهل الأمة له فهما وقبولا، بل كل أمر بحسـبه وبحسـب محتفاته. وربما كان من تأهيل الأمة لفهم وقبول بعض الأعمال، أن يروا نماذج من ممارساتها في الواقع، ثم لا تزال تزداد مع ازدياد قبولها في الأمة، في تناسـب يرفع الأمة من حال إلىٰ حال، ولا يحملها ما لا تحتمل في المراحل المختلفة، حتىٰ يتم المراد بإذن الله. فمن الممكن إطلاق شرارة

1- [الأنبياء - 107].

المعركة؟.. يمكن ذلك، علىٰ أن نضـع في حسـابنا أن الناس سـيفهمون ويقبلون، ونراعي فهمهم وقبولهم في المراحل التالية.

لكن تجاوز فهم الأمة وقبولها بالكلية له آثاره خطيرة، لو قلنا – كما يزعم البعض –: إن ذلك لا يهم، لا الآن ولا غدا. فهذا سـيكون خطأ فادحا، لأن معنىٰ ذلك أننا سنقاتل وحدنا، منفردين في المعركة، مع تفاوت في كل موازين القوىٰ علىٰ الأرض. ليس من الضـروري دائما أن يكون ذلك الذي لم يفهمه الأكثرون من الأمة، ليسـت عليه أدلة شـرعية. لكننا نتكلم عن إمكانية واقعية لابد من اعتبارها، وإلا تحملنا المعركة وحدنا. وفي النهاية .. حتىٰ متىٰ سـنتحمل؟.. وما الذي يمكن أن نصل إليه كنتيجة لبذلنا؟

إن هذا يفسر لنا لماذا في حالات الجهاد – مثلا – والتي حصلت داخل بلدان المسـلمين، وجدنا أنه مع كثرة التضـحيات، بقيت النتيجة المرجوة بعيدة. ذلك أن الأمة كأمة لم يكن عندها الفهم والقبول الكامل لذلك، فلم تحمل تلك المحاولات. مع أن نفس الأمة – مثلا – حملت أكثر القضايا الأكثر وضوحا، كأن يكون الجهاد ضد عدو كافر أجنبي واضح.

ففىٰ النهاية .. لا تكن عونا علىٰ نفسك، ولا علىٰ دعوتك، ولا علىٰ رسالتك. فالنبي ﷺ رأىٰ أن احتمال ابن سلول، أقل ضررا من قتله الذي سيؤدي للصد عن

ســبيل الله، بالنســبة لأكثر الناس «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْــحَابَهُ»[1].
وعليه فلا بأس أن تؤجل بعض الأعمال التي يترجح أن تؤدي إلىٰ فجوة وا سعة بين الفئة الحاملة للر سالة وبين الفئة المستهدفة بالدعوة إلىٰ الر سالة. كما أن النبي ﷺ قام بتأجيل ما يســتحقه ابن ســلول من العقوبة، لأجل ذلك. فاعتبر هذا المعنىٰ.. الفهم والقبول.

وإذا كان كلامنا السابق عمن هم خارج الجماعة المسلمة، وهدفنا أن ينحازوا لها.. فهل يراعىٰ فهم وقبول من انحاز إلىٰ الإ سلام أيضا؟.. نعم، وقد بدأنا كلامنا بالا ستدلال علىٰ ذلك، فإنه ليس كل من انضم إلىٰ المسلمين، صار علىٰ المستوىٰ المطلوب فهما وقبولا، وهذه حقيقة متكررة.

فقد أراد النبي ﷺ أن يعيد بناء الكعبة علىٰ قواعد إبراهيم عليه السلام فلماذا لم يفعل ذلك ؟ قال: «لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ...»[2] فما هي المشــكلة؟.. المشكلة أنهم هم الذين بنوا هذه الكعبة، وهي معظمة، فلو أن النبي ﷺ بعدما دخل مكة وفتحها.. وهم أنفسهم أ سلموا و صاروا معه، لكن إ سلامهم مازال ضعيفا.. فلو هدم النبي ﷺ الآن الكعبة.. فإن الرســالة التي ســتصــلهم أنه ﷺ يزيل عنهم

1- صحيح البخاري (4905) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

2- صحيح البخاري (1586) ومسلم (1333) عن عائشة رضي الله عنها.

الشرف، ليستأثر به وحده، وهذا يبعدهم عن النبي والإسلام. فحتىٰ المسلم لا تقل: إنه قد صار مسلما وانتهينا معه .. لا.

قد تقول: لا بد ولا بد .. لكننا قررنا مرارا أنك لا يجوز أن تتعامل مع ما ينبغي أن يكون، ولكن تعامل مع ما هو كائن. إن البعض مشـكلتهم في مثل هذا التفكير الرياضـي، الذي يتعامل مع ما ينبغي. إنهم شـخصـيات منطقية جدا، وعاقلة جدا، وذكية جدا .. لكن الواقع ليس للأذكياء فقط !! وهذا فهم خاطئ للحياة والأحياء.. فإن أكثر الناس لا يسـلمون من تناقض ما، حتىٰ إنه يوجد في بعض كتب الإدارة والتعامل مع الناس - وهو من أظرف ما يمكن أن تقرأ - قولهم: إن التناقض في الناس شـيء طبيعي جدا. فلا تتعامل معه علىٰ أنه شـيء غريب !.. وربنا ﷻ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].. فما معنىٰ ﴿ٱخْتِلَٰفًا﴾؟.. إن معناها: تناقض. فآية الكمال الرباني عدم التناقض، وآية النقص البشري أن يوجد تناقض. فهناك نسبة من التناقض عند الناس، ولا بد، تقل أو تكثر. فلا يصلح أن نعامل الناس بعقلية رياضية جامدة، وإلا كان الخطأ من جهتنا.

لا تقل: هو مسـلم فلا بد أن يفعل كذا.. فهذا الذي لا بد منه في رأسـك، قد لا يكون في الواقع كذلك، لا يحدث. فلا تقس حساباتك علىٰ ما لا بد منه، بل علىٰ ما يمكن، وعلىٰ ما يحصـل، من واقع هؤلاء الناس. فهناك من أسـلموا لكن مازالت

1 - [النساء - 82].

عندهم سلبيات ومشاكل، مازال عندهم ضعف، فهم يحتاجون إلىٰ من يحتضنهم ويتألفهم، وقد لا ينتفعون بمن يصيبهم بصدمة، بل يمكن أن ترجعهم تلك الصدمة خطوة أو أكثر إلىٰ الوراء.

ففي الجملة، هذه قاعدة عامة: الأصل أن تعتبر فهم الأمة وقبولها، فكن حريصا عليهما إذا كنت حريصا علىٰ إحراز تغييرات كبيرة ومستقرة وهامة في الأمة. سيبقىٰ دائما أكبر نجاح لصاحب الدعوة، ألا تكون دعوته حكرا عليه، إنما أن يحملها الناس معه، أن تنغرس في أرض أمته، فتستعصي علىٰ الإبادة، وتظل تنبت القادة والأبطال الذين يضحون للرسالة، ويغيرون الواقع من خلال معطيات جديدة، ولو من خلال جيل جديد يرث جيلا قبله، حتىٰ يتحقق التغيير المستهدف بعون الله.

القاعدة السادسة: إن مناط التكليف هو حقيقة الاستطاعة ، لا غيرها

وهذه قاعدة عامة من قواعد التكليف الشرعي ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾[1] فالقدرة هي مناط التكليف، ولذلك سبق معنا في حديث التغييرقوله ﷺ : «فَإِنْ لَمْ يَستَطِعْ»[2] إذ كان عدم الا ستطاعة سببا في إزالة الوجوب عن رتبة التغيير المطلوبة، والانتقال إلىٰ ما هو أقل منها مما يمكن أن يدخل تحت القدرة.

ومع أنه لا ينازع أحد في صحة هذه القاعة، إلا أن هناك وهمين خطيرين يشوشان علىٰ حسن الانتفاع بها، بما يؤدي إلىٰ أخلال في الممارسة التطبيقية للتغيير:

أولهما: ما يتوهمه الكثيرون من أن الاستطاعة بعمل ما أقدر عليه، أي: ما أقدر علىٰ تنفيذه، بغض النظر عن عواقب ذلك، وليكن بعد ذلك ما يكون. وهذا خطأ شنيع، فإن الاستطاعة الشرعية لا تشمل فقط ما تقدر علىٰ فعله في الحال، بل تشمل بالضرورة ما تقدر علىٰ تحمل تبعاته في المآل.

1- [البقرة - 286].

2- مسلم (49) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

لذلك قال النبي ﷺ في حديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ» .. وهل هناك من لا يستطيع أن يتكلم؟!.. لا يمكن، فاللسـان لا يتصـور أن يعجز لأنه يمسـكه أحد ما، فكيف لا تسـتطيع أن تتكلم؟!..

إن عدم الاسـتطاعة هنا بأنك لو تكلمت لن تقدر علىٰ أن تدفع ثمن الكلمة، فتكون في حكم غير قادر علىٰ الكلام، عقلا و شرعا. فالا ستطاعة أو القدرة لا يُنظر فيها إلىٰ تحمل الفعل وحده، ولكن يُنظر فيها إلىٰ تحمل تبعاته أيضـا. وهذا شـيء لابد أن يُراعىٰ، فما لا أقدر علىٰ تحمل تبعاته، فأنا في الحقيقة لا أقدر عليه، وليس عندي حقيقة الاسـتطاع، التي توجب عليّ هذا الفعل المعين. فالاسـتطاعة تشـمل القدرة علىٰ الفعل، مع القدرة علىٰ تبعات الفعل، وهذا الفهم لمعنىٰ الاسـتطاعة مطرد عند الفقهاء، فمن يمكن أن يستعمل الماء لكنه يتضرر با ستعماله – مثلا –، حكمه هو حكم غير القادر علىٰ استعمال الماء، وعلىٰ هذا تقاس الفهوم.

ثانيهما: جعل مناط التكليف معنىٰ آخر يتعلق بالظرف بالعام للحركة التغييرية، والذي هو الا ستضعاف أو التمكين، في كلام البعض، ويلحق به ما سماه البعض في الكتابات الدعوية، بالمرحلة المكية أو المرحلة المدنية.

فعندنا اليوم من يضعون خطا، ويجعلونه فا صلا بين الا ستضعاف والتمكين، ويرتبون عليه الأحكام .. فحيثما كنت مغلوبا علىٰ أمرك، وليسـت لك دولة ولا

مشاركة في سلطان، فأنت هكذا في حال استضعاف. وحيثما صار بيدك الدولة أوكان لك شيء من السلطان، فأنت هكذا في حال التمكين.

والحقيقة في باب التكليف الشـرعي ليسـت بهذا الاختزال المخل، فإنه ليس معنى كوني مستضعفا، جواز أن أترك كل شيء، لأنني مستضعف. بل ما أقدر عليه، فأنا مطالب به حتى لو كنت مستضعفا، وما لا أقدر عليه، فهذا هو محل المسامحة. والعبرة بأن كل ما تقدر عليه، فأنت مطالب به، سـواء أسـميت نفسـك في مرحلة استضعاف أو في مرحلة تمكين.

بل إن الخطأ قد حصـل من جهتين متقابلتين، ففي الاسـتضـعاف هناك من تسامحوا مع أنفسهم بدعوى الاستضعاف، مع أن المستضعف يقدر على أشياء – تقل أو تكثر – فيعملها . والمستضعفون يختلف بعضهم عن بعض، فبلاد لا يمكن فيها من حفظ القرآن، وأخرى يقدر فيها على الكثير جدا من أعمال الإسلام .. فهل تتسـاويان؟؟.. قطعا، لا. لأن مناط التكليف ليس هو الحالة العامة بهذا الإطلاق، إنما المناط هو القدرة الجزئية والتفصـيلية، والتي تتأثر بالظرف العام – بلا شـك أيضا –.

كذ لك في الجهة الأخرى، جهة التمكين .. يقال نفس الكلام، فإن مناط التكليف هو الا ستطاعة والقدرة. بمعني إنه ليس كل م ست ضعف ي ضعف عن كل

شيء، ولا كل ممكن يمكنه فعل كل شيء، وإن كان كل من الاستضعاف والتمكين مؤثر بنسبة على حقيقة القدرة التي نتكلم عنها.

يدل على ذلك نظرنا إلى أحكام التعامل مع المنافقين - مثلا -، فإننا نجد فيها ما يلي: هل نزلت في مكة أم في المدينة أم في الاثنين ؟؟.. في المدينة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "بخلاف ما كانوا وهو بمكة؛ فإنه لم يكن هناك منافق؛ ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره: لم يكن من المهاجرين منافق وإنما كان النفاق في قبائل الأنصار؛ فإن مكة كانت للكفار مستولين عليها فلا يؤمن ويهاجر إلا من هو مؤمن ليس هناك داع يدعو إلى النفاق؛ والمدينة آمن بها أهل الشوكة؛ فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار فمن لم يظهر الإيمان آذوه. فاحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان مع أن قلوبهم لم تؤمن"[1].. فالنفاق كله أصلا كان في ظل المرحلة المدنية، والتي هي مرحلة التمكين. ومع ذلك، هل كانت أحكام التعامل مع المنافقين واحدة ثابتة؟؟.. أم أن الأحكام تفاوتت في ظل التمكين، فبدأت بالموعظة والإعراض، وتدرجت فلم تنزل آيات التغليظ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[2] إلا في آخر حياته ﷺ. لماذا ؟؟ لأنه حتى في طور التمكين، لم يمكن الإغلاظ عليهم ابتداء، فكان تألفهم وموعظتهم والإعراض عن

1- مجموع الفتاوى (7/ 201).

2- [براءة – 73].

أذاهم، هو الأحسن للمسلمين. فلما قويت شوكة المسلمين، أمر الرسول ﷺ بالإغلاظ عليهم.

وكذلك أحكام الجهاد، ما بدأت إلا في المدينة، فهل كانت واحدة ثابتة من البداية للنهاية؟.. إنها أيضا لم تكن واحدة. فلماذا كان فيها هذا التدرج والتفاوت المعروف؟.. ألم تكن مراعاة لقدرة المسلمين؟!.. ولذلك فالقول الفصل في أحكام الجهاد الأخيرة: هل هي من باب النسخ لما قبلها، أم من باب النسء فأجلت عما قبلها؟.. ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أن الخلاف المنقول عن أهل العلم في هذه المسألة خلاف لفظي، فهو خلاف في التعبير، وهناك اتفاق في المعنىٰ. فما يجب علينا أن نحرص عليه، وما نحن مطالبون به حال تمام القدرة، هو الحكم الأخير. لكن حيث عجزنا عنه فالذي يلزمنا يكون ما قبله، مما نقدر عليه، مع أننا مطالبون بالسعي للحكم الأخير، من خلال تحصيل أسباب القدرة، ووجوب إزالة العجز الذي يضطرنا إلىٰ ما قبل الأحكام النهائية. فالذي يعوّل عليه ومناط التكليف.. هو حقيقة الاستطاعة، وليس كوننا في مرحلة استضعاف أو حتىٰ في مرحلة تمكين.

بل نجد أنه في عصر التمكين النبوي، وما بعده في أول عصر الخلافة الراشدة (خلافة الصديق) .. ظل يعطىٰ من الزكاة سهم للمؤلفة قلوبهم، فكان من ضمن

هؤلاء بعض زعماء قبائل، الذين كانوا ضعاف الإيمان. فكان النبي ﷺ يعطيهم مما يحبون من المال، ليحفظ ولاءهم للأمة المسلمة بقدر الإمكان.

كثيرون يظنون أن الزكاة للفقراء فقط .. والحقيقة غير ذلك، فالفقراء لهم جزء من أجزاء الزكاة. لكن أهم مصارف الزكاة، إنما هي في نصرة الدين، فتأليف القلوب مقصوده نصرة الدين، بجمع قلوب الناس علىٰ الإسلام، وإبعاد الفتن عنهم. فكان هؤلاء الزعماء يأتون النبي ﷺ فيعطيهم، ثم لما توفي النبي ﷺ جاءوا إلي أبي بكر فأعطاهم، فلما توفي أبو بكر ﷺ جاءوا إلىٰ عمر ﷺ فقال لـ "عيينة والأقرع": "إنما كان النبي ﷺ يتألفكما والإسلام قليل، وقد أغني الله عنكما". يعني: إنما كنا نعطيكم وقتما كان من الممكن أن تؤثروا علىٰ الناس والمسلمين والإسلام. لذا قال العلماء: إن سهم المؤلفة قلوبهم مرتبط بهدفه، فإن احتجت إليه فأعط، وإن استغنيت عنه فأوقفه، وتكون هناك مصارف أخرىٰ أولىٰ في نصرة الدين، فتبذل لها من أموال الزكاة. ولم يحصل في دولة الإسلام الأولىٰ ذلك الاستغناء إلا في زمن عمر، فالتمكين درجات ورتب، والاستضعاف درجات ورتب.

فلا يجوز أن نتساهل ونفرط بدعوىٰ الاستضعاف، كما أن دعوىٰ التمكين وبالتالي القدرة علىٰ كل شيء خطأ مقابل. لا بد أن تستحضروا كلام الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ﷺ وهو من طبقة التابعين، لقي خاله عبد الله بن عمر ﷺ فليس بعيدا عن زمن الصحابة، ومع ذلك كان يشكو تغير الأحوال، ولما قال

له ابنه عبد الملك: مالك لا تنفذ الأمور؟ فوالله لا أبالي في الحق إن غلت بي وبك القدور. لكن أباه الراشــد عمر بن عبد العزيز قال له: "لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس علىٰ الحق جملة فيدفعوه جملة، ويكون من ذلك فتنة" وقال: "إني أعالج أمرا لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصــغير، وفصــح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتىٰ حسبوه دينا لا يرون الحق غيره".

بل بلغ من صــبره وعلمه وفقهه أنه لم يغير كل خلل، بل تدرج واختار، فلم يغير - مثلا - ولاية العهد التي كانت مكتوبة لمن بعده تسكينا لنفوس بني أمية. إنه لم يقدر - وهو الخليفة، وفي زمن التابعين - علىٰ كل شــيء أراده من الحق، فالمعركة التغييرية بالنســبة لنا اليوم، وبعد كل الأخلال التي تطاولت في أمتنا عبر القرون، لا شك أنها أكبر وأصعب كثيرا، ولو كانت ممن يصل إلىٰ الحكم أو يشارك فيه.

القاعدة السابعة: التدرج في التغيير سنة الكون والشرع

وهذه القاعدة مترتبة علىٰ القاعدة السـابقة، التي تكلمنا عنها قريبا عندما ذكرنا قصة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ﵀، وهو يسعىٰ في تغيير الأمة، من موقع الخلافة، وهم قريبو عهد بعصر النبوة والخلافة الراشدة.

أما أن التدرج سـنة الكون، فكل شـيء من هذا الخلق قد جعل ربنا ﷻ له مراحل، يهيّئ بعضها لبعض، وفي ذلك حكمة لابد أن يتلمسها الإنسان، لينتفع بها في ممارساته، إذ دائما ما نجد تناسبا بين الكوني والشرعي. وبالأدلة الشرعية، نجد التدرج مشروعا سواء أكان مع المؤمنين، أو كان مع المدعوّين للإيمان. والناس إما مؤمنون وإما مدعوّون .. فليس غير هؤلاء نتدرج معهم !!

أما المؤمنون، فنجد تدرج الوحي في تربيتهم في صـحيح البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂ : «إنما نَزَلَ أولَّ ما نزَلَ منه سورةٌ مِن المُفَصَّلِ، فيها ذكرُ الجنةِ والنارِ، حتىٰ إذا ثابَ الناسُ إلىٰ الإسـلامِ نزَلَ الحلالُ والحرامُ، ولو نزَلَ أولُّ شيءٍ: لا تشربوا الخمرَ لَقالوا: لا نَدَعُ الخمرَ أبدًا، ولو نزَل: لا تَزْنُوا، لقالوا: لا نَدَعُ الزنا أبدًا، لقد نزَلَ بمكةَ علىٰ محمدٍ ﷺ وإني لجاريةٌ ألعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾. وما نزَلَتْ سورةُ البقرةِ والنساءِ إلا وأنا عندَه»[1].

1 – البخاري (4993) عن عائشة ﵂.

وهذا النقل عن أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تتكلم فيه عن التدرج الشـرعي الذي ربىٰ به ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خير هذه الأمة، وانتبه إلىٰ أنها لا تحكي ما حـصل فقط، بل هي تفـسر لماذا حصل أيضا ؟؟.. ولا شك أنها أقرب لصحة الفهم، إذ كانت زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت معايشـــة لهذه الحال، فهي أقرب من غيرها ممن أتىٰ بعدها بقرون. فالمؤمنون إنما ربوا، وصـــاروا مؤمنين، بهذا التدريج معهم، وبغير ذلك ما كان ليظهر خير هذه الأمة، وهم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

لكن إشكالا مشهورا يورد علىٰ ما نذكره، وحله في بقية الكلام. فقد يقول لك قائل: لا، أنت تـستدل بطريقة خاطئة .. لماذا؟؟.. لأننا ذكرنا أن آيات نزلت فأمرت الناس، فالتزموا، ثم نريد أن ننزل هذا الكلام، بعدما اكتمل الدين وتمّ!! فهل نريد أن نلغي أشـياء من الدين قد نزلت؟؟.. وهذا ما لا يقدر أحد أن يقوله. أين: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1]؟؟

الحل في هذا الدليل الثاني: إنه حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعث معاذا إلىٰ اليمن، قال له: «إنك تأتي قومًا من أهلِ الكتابِ، فادعُهم إلىٰ شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنِّي رسـولُ اللهِ» وفي روا ية أخرىٰ: «إلىٰ أن يو حدوا الله» .. فهؤلاء الـناس كـفار،

1 – [المائدة – 3].

وســـندعوهم للتوحيد. وهذا طبيعي ومفهوم، فلن نلزم أحدا بالفرائض إلا بعد أن يدخل في التوحيد، وينتقل إلىٰ أمة المسلمين.

فلنكمل الحديث، قال: «فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمْهم» فصـــاروا مســـلمين «أعلمْهم أن اللهَ افترض عليهم خمسَ صـــلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ» .. لأن أعظم الفرائض وآكد فروض الأعيان بعد التوحيد هو الصلاة. ثم قال له: «فإن هم أطاعوا لذلك» صـــاروا مصـــلين أيضـــا «فأعلمهم أن اللهَ افترض عليهم صـــدقةً تُؤخَذُ من أغنيائِهم فترُدُّ في فقرائِهم»[1] وهي الزكاة.

ومحل الاســـتدلال أن النبي ﷺ لما كان يكلم معاذا، كانت الزكاة مفروضـــة، فالإ سلام الذي سيدخل فيه أهل اليمن، إ سلام فيه توحيد، وفيه صلاة، وفيه زكاة، ومع ذلك فإن النبي ﷺ يقول لمعاذ: لا تقل لهم عن الزكاة شيئا، إلا بعد أن يوحدوا ويصـــلوا .. فليس مجرد تحولهم لمسـلمين، يوجب عليك إلزامهم الفوري بكل الدين.

نعم .. الدين قد اكتمل، ومع ذلك تقول لهم عن الصـــلاة، ولا تقول لهم عن الزكاة .. إلا عندما يصـــلون، ولا يكفي مجرد كونهم موحدين، بل بعدما يصـــيرون مصلين أيضا، وقتها تقول لهم عن الزكاة أيضا. فهل عندما أمره النبي ﷺ بذلك كان

---

1 - مسلم (19) عن معاذ بن جبل ﵁.

يلغي فريضة الزكاة من الدين؟؟.. ألم تكن الزكاة وقتها مفروضة؟!.. بل كانت مفروضة، انما كان ﷺ يكلف الناس ما يطيقون، وكان يأخذهم إلىٰ الله ﷻ برفق، وكان يعلم أن هذا هو الطريق الذي يُدخل الناس الجنة .. ونحن لسنا أعلم ولا أرحم من النبي ﷺ.

إن الدين قد اكتمل، هذه قضية قطعية، لكننا قد لا نقدر علىٰ تطبيق الدين كله، مرة واحدة، علىٰ كل الناس، وهذه قضية ثانية غير الأولىٰ، لأن الفجوة اليوم واسعة، فلا شك أننا نحتاج اليوم أن نسلك المسلك الذي أرشد إليه النبي ﷺ ، من التدرج مع الناس في إلزامهم بواجبات الشريعة الكاملة.

ومع أن التدرج سنة الكون والشرع، إلا أن التدرج لا ينبغي أن يكون بطيئا، غير متسم بالجدية، كمن يزعم أنه يكون في مائة سنة أو نحوها، وإلا كان تعطيلا وتعويقا، وليس إعانة وتسريعا. ثم إن الله ﷯ يساعد بأقدار من عنده، أولئك الذين ينصرون دينه، فيكون نجاحهم أسرع شيء.

وقد تحول عوائق وذنوب وتقصير، فتباعد بيننا وبين موعود الله ﷻ. فإن ربنا ﷻ قال لبني إسرائيل: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾[1].. فلما لم يدخلوا، تاهوا أربعين سنة، وهم الذين أخروا أنفسهم، مع أنهم كانوا موعودين

1- [المائدة - 21].

أنهم لو دخلوا وقتها فإن الله ينصرهم. ونحن كذلك .. بأعمالنا يمكن أن نجيب عن السؤال المتكرر: هل سيكون التدرج بطيئا أم سريعا؟.. مع التذكير أننا نتكلم هنا عن أصول عامة في التغيير، والتطبيق سيكون دائما اجتهادا من أهله.

القاعدة الثامنة: عدم الاغترار بتشابه الصور، إذا دلت القرائن علىٰ اختلاف الحقائق

إن المعتبر الذي تبنىٰ عليه الأحكام، كما يقرر العلماء في باب العاديات: إن العبرة بالحقائق والمعاني والمقاصد، وليست العبرة بالألفاظ والمباني والأشكال فقط. فلو أن إنسانا عمل عملا ظاهرا، فلا يلزم أنّ كل عمل يساويه في هذا الظاهر أو يشابهه، سيأخذ نفس الحكم. لأنه من الممكن أن يكون للأول مقصد، وللآخر مقصد غيره، ولو عملاه بشكل واحد.

فإن الشرع راعىٰ الحقائق، ولهذا فاوت بين دلالات الظواهر. فنجد مثلا أن بيع العينة حرام، لأن بيع العينة في حقيقته تحايل علىٰ الربا. فإذا قلت لك: أعطني مائة جنيه، وأرجعها لك بعد شهر مائة وعشرة جنيهات. فهذا ربا صريح .. لن نعمله هكذا، أنا أريد مائة جنيه، وأرجعها لك مائة وعشرة جنيهات. فنأتي لسلعة، كلانا لا يريدها، كقلم في يدي مثلا، فما رأيك أن تشتري مني هذا القلم بمائة جنيه، فأعطيك القلم - الذي لا تحتاجه - وآخذ أنا مائة جنيه كما أريد. حتىٰ آتيك بعد شهر لآخذ منك القلم بمائة وعشرة جنيهات؟.. فالصورة والشكل أن ما تم بيع، لكن الحقيقة التي قصدت وحصلت هي مبادلة مال بمال مع زيادة مقابل الأجل، والقلم كان شيئا شكليا انحصر دوره في أن نأخذ الشكل الذي يبدو غير محرم. هذا هو بيع العينة، وهو محرم لأن الشرع يمنعك أن تستحل محارم ربنا ﷻ بمثل هذه الحيل.

لهذا نجد في صحيح البخاري "كتاب الحيل - باب في ترك الحيل، وأن لكل امرئ ما نوىٰ في الأيمان وفي غيرها" وفي "كتاب الأشربة - باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه" .. فأنت عندما تغير الاسم .. هل غيرت الحقيقة؟! ..لا، والعبرة دائما بالحقائق، فلا يُغتر في الحكم بمجرد تشابه الصور الظاهرة أو اختلافها، بل الأمر كما قال ابن تيمية: "لأن الظاهر إنما يكون دليلا صحيحا معتمدا إذا لم يثبت أن الباطن بخلافه، فإذا قام دليل علىٰ الباطن لم يلتفت إلىٰ ظاهر قد علم أن الباطن بخلافه"[1] مع أن "أكثر الناس نظرهم قاصر علىٰ الصور لا يتجاوزها إلىٰ الحقائق فهم محبوسون في سجن الألفاظ، مقيَّدون بقيود العبارات ... وأهل النقد منهم الذين يعبرون من الظاهر إلىٰ حقيقته وباطنه لا يبلغون عشر معشار غيرهم ، ولا قريبًا من ذلك، فالله المستعان." كما قال ابن القيم[2].

بعض الأمثلة الفقهية التي تساعد في تقرير وتقريب القاعدة:

1- في فقه الطهارة من العباديات، يحرم علىٰ المسلم أن يباشر النجاسات، بل هو مأمور شرعا بالتنزه عنها والمباعدة بينه وبينها. وهذا الكلام من حيث الإجمال والعموم والمقصد صحيح، لكن من حيث التطبيق .. لا .. هناك تفصيل .. فالذي

1- الصارم المسلول (39).

2- إعلام الموقعين (6/ 97 – 98).

يبا شر النجا سات مزيلا لها، هذا يفعل طاعة، بخلاف الذي يبا شر النجا سات غير مهتم وغير مبالي، فهذا هو الذي وقع في الحرام.

لذا فمن عنده توسـع في الفقه، يعرف أنه قد حصـل خلاف بين المتقدمين في مسـألة الاسـتنجاء، بينما كانوا متفقين علىٰ مشـروعية الاسـتجمار، الذي هو إزالة النجاسة الخارجة من البدن بالأحجار ونحوها. فبعضهم أنكر استعمال اليد والماء في هذه الإزالة، لأجل ما بها من ملابسة للنجاسة، وقال: كيف الوّث يدي ولا أنزهها عن هذه النجاسة ؟؟.. وبعد ذلك حصل الإجماع علىٰ مشروعية الاثنين.

فما أريد أن أقوله: في الاستنجاء، المعنىٰ الحقيقي للملابسة هو إزالة النجاسة، صـحيح أن ذلك يتم من خلال مباشـرتها، لكننا نباشـرها مباشـرة إزالة، وليسـت مباشـرة تعايش أو رضـىٰ أو حتىٰ عدم مبالاة بها. فالصـورة يمكن أن تبدو واحدة، لكن في الحقيقة والحكم بين الملابستين اختلاف كبير، بل تضاد.

2- في فقه المعاملات من العاديات، كذلك يقول العلماء في الإنســان الذي يغتـصب أر ضا، أخذ أر ضا بغير حق، فهذا ما حكم انتفاعه بالأرض ومـشيه فيها.. هل هو حلال أم حرام ؟؟.. حرام .. ومع ذلك فالمشــي في الأرض المغصــوبة له صورتان:

[1] من يمشي فيها علىٰ وجه الانتفاع، أوعدم المبالاة، فهذا حرام.

[2] وقد يكون مريدا للتوبة من غصبها .. فكيف يخرج منها ليفارق الحرام إذا كان في وسطها؟؟.. سيمشي فيها حتىٰ يخرج .. فهل نقول له: مشيك في الأرض حتىٰ تخرج حرام ؟!.. لا .. هو مشي مشروع بل واجب، فإنما هو خروج من الظلم، وليس تقريرا له، ولا عدم مبالاة بالظلم. فلا يقال: كلاهما يمشي في أرض مغصوبة، فكلا المشيين حرام. لا .. فهذا يمشي ليخرج، والآخر يمشي ليتسلىٰ أو ينتفع.

وعليه فقد تتشابه الصور، وتختلف الحقائق .. فإياك أن تغتر بتشابه الصور.. بل لا بد أن تنظر إلىٰ القرائن المحتفة، والتي تدل علىٰ الحقائق، لأنه عليها ينبني الحكم.

ومن هذا الباب نستحضر لكم فتوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ لما أجاز أخذ الإقطاع، بل أوجبه أحيانا، والصورة صورة ظلم، بأخذ بعض ما لا يحل من المال، لكن الحقيقة كانت حقيقة إحسان بتخفيف ودفع هذا الظلم بحسب الإمكان، لذا لا يمنع هذا المحسن من صنيعه إلا من كان "مخطئا جاهلا بحقيقة الدين" بل كان قوله هذا "مما لا يشير به عاقل، فضلا عن أن تأتي به الشرائع، فإن الله ﷻ بعث

الرســل لتحصــيل المصــالح وتكميلها، وتعطيل المفاســد وتقليلها بحســب الإمكان"[1].

واليوم غالبا ما يعيش المسلمون تحت ظلم أنظمة سياسية كثيرة جدا، لا ترجع إلىٰ الشــريعة، وترفض النزول علىٰ حكم الله ﷻ. فلو دخل مســلم فيها حتىٰ يأخذ شيئا من المصالح والمنافع، من خلال هذا النظام الذي يردّ أحكام الله فلا شك أن هذه جريمة منكرة، قد تقترب بالمســلم من جريمة الردة. لكن لو أنه دخل حتىٰ يدفع الردة والظلم عن المســلمين، ويعيدهم إلىٰ ما يمكن من أمر الله ﷻ ، ويعينهم علىٰ تحصــيل بعض حقوقهم، فمن الممكن أن تبدو الصــورة في الحالتين بشــكل واحد، لكن جعل الحقيقتين شــيئا واحدا .. هو ظلم بيّن بلا شــك، لأن الحقائق مختلفة.. هل هو في حال إقرار ورضىٰ؟ أم أنه في حال مدافعة وتغيير؟

قد تقول لي: لكنك قد دخلت باختيارك، فلا بد أن تتحمل حكم المشــاركة في الجريمة!.. فنقول لك: في الأصــول كان للســادة الأحناف تقســيمات بديعة، تزيد بعض الحقائق بيانا، وإن كان المعنىٰ متفقا عليه. من ذلك ما جاء عندما تكلموا عن مبحث الإكراه، فقالوا: إن الإكراه نوعان:

الأول: يزيل الرضىٰ والاختيار.

1- مجموع الفتاوىٰ (30/ 356 – 360).

والثاني: يزيل الرضىٰ ولا يزيل الاختيار.

فما الفرق بين الاثنين ؟.. إن مثال الذي يزيل الرضىٰ والاختيار، كأن يقيدك ظالم، ثم يلقيك علىٰ آخر، فيقتله بك. فأنت هكذا لا راض ولا مختار، بل أنت كالآلة بيد الظالم، ولا فعل لك بوجه. أما مثال الذي يزيل الرضىٰ ولا يزيل الاختيار، فكأن يوضع سلاح في يدك، وسلاح آخر بيد الظالم مسلط عليك، ثم يقول الظالم لك: إما أن تقتل أخاك فلانا الذي أمامك، وإما أن أقتلك .. فأنت لست راضيا عن قتله، لكن الاختيار لك.

إنه في مثل هذه الحالات نجد التفصيل عند العلماء، فليس كل إكراه يُعتبر مسقطا للمسئولية وللمؤاخذة الشرعية، لذا يقولون: لا إكراه في القتل، لأن نفسك ليست أولىٰ بالحفظ من نفس أخيك، فقتله حتىٰ تعيش أنت، هو اختيار إجرامي تحاسب عليه، وإن لم تكن راضيا به. لأن لك اختيارا في الفعل، وقد كان اختيارا سيئا وظالما.

لكن لو قال لك الظالم مثلا: إما أن تضربه بيدك وإما أن أقتلك وأقتله. فاضربه بيدك مكرها، ثم أرضه بعد ذلك .. فلا مقارنة بين هذه الضربة وبين القتل. هل أنت ظالم له عندما تضربه هكذا؟.. الحقيقة هنا مختلفة، فأنت تريد أن تنقذه وتنقذ نفسك من القتل، ولو باحتمال أخف الضررين، وهذا اختيار صالح ومشروع.. وإن

كان مبنيا على وجود اختيار مع عدم وجود الرضى، وهذا من الإكراه المعتبر في محله.

إن هناك من يتوهمون أن الإكراه لا بد أن يزيل الاختيار!!.. وهذا ليس صوابا، فالصحيح أنك قد تكره على أشياء كثيرة، لأنه ليس لك فيها رضى، وإن كان لك فيها اختيار. وأحكام الشريعة تضبط ما الذي يصلح أن تختار فيه، وما الذي لا يصلح فيه إلا الصبر والتفويض إلى الله، باعتبار موازين المصالح والمفاسد الشرعية، لذلك يعدون الإكراه من أمثلة الاضطرار، كما هو معلوم في كتب أصول الفقه والقواعد الفقهية.

فيمكن أن يوجد في مواطن الحكم - في ظل علمانية متغلبة - من ليس عنده رضى وإن كان عنده اختيار، وهو يختار تقليل الكفر وتقليل الظلم وتقليل الفسق.. ليس راضيا بشيء منها، بل هو يعلن رفضه للباطل، لكنه على مستوى التغيير لا يقدر أن يغيره كله في الواقع حاليا.

فهذا يقال له: ستقدر على هدفك، أو لن تقدر عليه .. طريقك صواب يصلح فيه اختيارك، أم خطأ ليس فيه محل للاختيار. لكن لا تجوز التسوية بين من يدخل مغيّرا منكرا، ومن يدخل منتفعا مقرا أو غير مبال بالإنكار.

توجد بعض الكتابات علىٰ النت، وتنتشر لدىٰ بعض الشباب، تسوّي وتقول: كل من يحكمون بغير ما أنزل الله كفار، وكل حكوماتهم كفار، وكل مجلس الشعب كفار، حتىٰ وإن قالوا إننا ندخل لنرد التشريع لربنا !!.. فكيف تجوز التسوية بين من يردّ التشـــريع لربه، وبين من يرفض تشـــريع ربه ؟!.. إنها تســـوية ظالمة، يمكن أن يكون هذا محلا للتخطيء أو للتصـــويب، هذه يمكن أن تناقش بالأدلة، لكننا في النهاية أمام اختلاف في الحقائق، فلا بد أن يثمر ذلك اختلافا في الأحكام.

ومسألة الخداع بتشابه الصور، هو خداع غير حقيقي وغير علمي. بعض الناس يظن أنه حين يثبت تشابه الصور، فهذه هي الحجة الشرعية الدامغة، والبينة التي لا تقبل المناقشة. ولا يفهم أنه قد تتشابه الصور وتختلف الأحكام الشرعية، والدارس للشـــريعة وللفقه يعرف هذا الكلام، أما دليل التفريق فهو القرائن المحتفة التي تدل علىٰ اختلاف القصـــود والمعاني، والذي يثمر اختلاف الأحكام. فلا تغتر بمجرد تشابه الصور، إنما انظر إلىٰ الحقائق قبل الحكم.

لكن البعض يقول إن الإ سلام لن يُطبَّق والـ شرع لن يُمَكن عن طريق البرلمانات ؟؟.. والجواب فيما يلي:

أولا: نحن لا نختلف أن البرلمان إذا أعطىٰ نفســه ســلطة تشـــريعية مطلقة من دون الله فهو برلـمان كفري، لكن لا يتر تب علىٰ هذا أن من يد خل ير يد إ عادة

التشـريع لله يكون كافرا. ولهذا فأكثر أهل العلم الذين حكموا علىٰ العلمانية بالكفر الأكبر، هم أنفســهم أجازوا دخول المنازعة والتغيير [مثل: الشــيخ أحمد شــاكر، والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، و د.عمر الأشقر، والشيخ عبد المجيد الشاذلي، و د.صلاح الصاوي، والأكثرون].

ثانيا: من يقول إن البرلمانات لن تقيم شــرع الله. فيمكن أن أضــم صــوتي إلىٰ صوته، فنحن لا نتوقع أن البرلمانات ستقيم شرع الله بشكل كامل وحقيقي، وهذا الرأي تدعمه خبرة العقود الماضية. لكن البرلمانات والأحزاب وسائر الممارسات السياسية المشابهة في ظل العلمانية من باب المدافعة، نزيد بها من مساحة الخير، ونتيح الفرصــة للاقتراب من المأمول، وهذه مصــالح شــرعية مطلوبة ومفقودة. أما إقامة الدين كله كدين، فهذا أمر قد لا يأتي إلا بما هو أعظم من ذلك، لكنه يحتاج إلىٰ تأهل له، فهذه الوسائل مع ذلك لها قيمتها التي نحتاج إليها.

ثالثا: إن المشكلة فيمن يحاول أن يقسم الحياة إلىٰ حق أوباطل فقط. وشرعي أوغير شرعي فقط. فنحن نعمل الشرعي تماما والحق الصافي وفقط. فإذا لم نقدر عليه فماذا نعمل؟.. يقول: لا دخل لي. وهذا غير صــحيح، بل لك دخل، وعليك مســئولية، وإلا أدىٰ ذلك إلىٰ إتاحة الفرصـــة للباطل فيعمل ويؤثر منفردا، وتكون أنت مساعدا له علىٰ ذلك، من حيث عرفت أو لم تعرف.

إنه إذا كانت الممارسة المشروعة الذي لا تريد اختيار سواها لا تقدر عليها.. فما العمل؟.. إنك ستصل لحال من اثنتين: إما أن تحمل نفسك ما لا تطيق، فتسقط في الواقع ويسقط مشروعك معك. وإما أن تصيب نفسك بالشلل والعجز الكامل، ولا تفعل شـيئا تغييريا، فتحرم الأمة من كفايات ناس من الأخيار، كان من الممكن أن يكونوا ذوي دور نافع فيها، في ظل محنتها الطاغية.

لا.. نحن لا نريدك أن تمارس الانتحار لتوهمك أنه الطريق الوحيد المشـروع لك، ولا أن تمارس الانعزال لتوهم البقاء طاهرا في ظل حياة مدنسة. إنما نريدك أن تمارس الإصلاح والتغيير والمدافعة بحسب ما تستطيع، وأن تتقدم مع الوقت، وأن تغتنم فرص زيادة الخير وتقليل الشر بقدر الإمكان.

وفي نفس الوقت: لا تغير شيئا من حقائق الدين، فلا تقل علىٰ ما ليس بشرعي إنه شرعي. إنه ستظل أ شياء غير شرعية، ونحن نتعامل معها وهي غير شرعية، من باب أن هذا أحسن ما يتاح في هذا الوقت. وأن ما هو أولي منها بالشرعية قد لا نقدر عليه، فنحن نفعل ما نقدر عليه من الإصـلاح، وما نراه أصـلح لمجتمعنا وبيئتنا، ونسعىٰ للوصول لما يحوز كمال الشرعية، الذي لا نرضىٰ بغيره بديلا، وإن كنا قد نختار غيره للضرورة أو للحاجة، في ظل واقع بعينه.

رابعا: لا تكن أسـيرا لخبرات ممارسـة سـلبية معينة، إننا بإجمال الآن ننبه أن عندنا – كحركة إسلامية – ممارسات فيها أخطاء، وأحيانا الناس ينظرون للممارسة المشتملة علىٰ خطأ، فتسبب عندهم ردّ فعل سلبيّ ضد كل ما يشبه هذه الممارسة.

فهناك – مثلا – ممار سات سيا سية أ سبغت الـ شرعية علىٰ ما ليس بـ شرعي، وهذا خطأ محض، لا يمكن أن نوافق عليه، لكن هذا لا يعني بالضـرورة أن هذه الممارسـة بحد ذاتها لا يمكن ان نوافق عليها، لأن هذا لا يعني بالضـرورة أن هذه الممارسة لا بد أن تكون ملازمة دائما لتلك السلبيات.

فإنه ما من وسيلة من وسائل التغيير، إلا وحصل عند تطبيقها من بعض الناس أخطاء فادحة. فنحن لا نسـتطيع أن نتوقف عن ممارسـة الدعوة، لأن هناك ناس مار سوا الدعوة فأخطأوا، أو نتوقف عن ممار سة الـسيا سة لأن هناك ناس مار سوا السيا سة فأخطأوا، أو عن ممار سة الجهاد لأن هناك ناس مار سوا الجهاد فأخطأوا. لا بد أن نعترف أن كثرة من أبناء التيار الإ سلامي عندهم "درو شة في الورع" تحول بينهم وبين العمل خشية الخطأ. فأنت إذا أردت ألا تخطئ .. فلا تعمل. لأن الوحيد الذي لا يخطئ، هو الذي لا يعمل. لكن أي إنسـان يعمل، سـترد منه الأخطاء، ولا بد.

وحتىٰ يكون عندك حسّ شـرعي في التعامل مع الأخطاء، اقتدِ بالنبي ﷺ لما أخطأ خالد بن الوليد وقتل ناسـا لم يسـتحقوا القتل، وهذا خطأ كبير في باب الدماء

الذي هو من أخطر الأبواب، فليس هناك أســوء من هذا. لقد قال ﷺ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَــنَعَ خَالِدٌ»[1] فلم يقرّه على الخطأ، لكنه أيضــا لم يعزل خالدا عن ولاية جيوش المسلمين؟.. لأنه «سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ»[2] وإن كان واردا أن تحصل منه أخطاء.

فنحن نقول إن الممارســة الخطأ لا بد أن تنكر، لكن ينبغي ألا تدفعنا إلى ردّ فعل سلبيّ. فقد لقينا نا سا – مثلا – ونتيجة لأنهم رأوا بعض الممار سات الجهادية السلبية في بعض البلاد، صارت عندهم حسا سية مفرطة تجاه قضية الجهاد في أي مكان حتى في الأماكن التي لا يصــلح فيها إلا الجهاد، بســبب ما عنده من رد فعل نفسي فقط. وهكذا في كل عمل، فما نحن مطالبون به هو تر شيد ممار ساتنا. إننا لن نتخلى عن ثوابتنا، لن نميع منهجنا، ولن نغير حقائق الدين .. لهذا نتكلم عن إظهار الحق، حتى نحافظ على المبدأ .. لكن في نفس الوقت، قد تكون هناك ممارســات يتوهم بعض الناس أنه لا بد أن يلازمها (التمييع) .. وهو لا يلازمها في الحقيقة.

[بخصوص الممارسة السياسية في ظل الأنظمة العلمانية، يمكن مراجعة باب: الحكم بما أنزل الله بين الحاكم العلماني والحاكم الإســلامي، في كتابنا (حوارات ساخنة خلف قضبان باردة) ففيه تأصيل وتفصيل هامين].

1- البخاري (4339) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

2- صحيح، رواه الترمذي (3846) وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه.

القاعدة التاسعة: التمييز بين المستويات المختلفة لتحقيق الإسلام، وتمييز أحكام كل منها

فعندنا مستويات في التعامل مع الشريعة، ومع الترابط الشديد والمفهوم بين أجزائها في المستويات المتعددة، إلا أن لكل مستوىٰ رتبة تميزه عن غيره. وإليكم البيان:

أولا: أصل الانقياد لله، هذا من أصل الإيمان، وبدونه لا يكون الإنسان مسلما يصح له عقد الإسلام ابتداء. فلا بد أن يكون عندي أصل الانقياد لله والطاعة، بأنه ﷻ هو ربي الذي يأمرني وينهاني ويحلل لي ويحرم عليّ.

من ليس عنده هذا الاعتقاد ليس مسلما، وكيف يكون مسلما ؟!.. فلماذا إذا أنزل ربنا ﷻ الكتاب ؟.. ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[1] !!.. ولماذا إذا أرسل ربنا ذلكم الرسول؟.. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2]!!.. فماذا يبقي من إيمانك بالله وإيمانك بالرسول إذا لم يكن في قلبك وعلىٰ ظاهرك أصل الانقياد والطاعة والتسليم؟!.. هذه حقيقة الإيمان وبديهة الإسلام .. علىٰ مستوىٰ التشريع.

1- [البقرة - 213].

2- [النساء - 64].

ثانيا: لكننا إذا أردنا أن نتكلم عن توابع ذلك، فنتكلم عن القضـاء، سـنجد أنه رتبة ثانية، فالنبي ﷺ قال: «الْقُضَـاةُ ثَلَاثَةٌ وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ وَاثْنَانِ فِي النَّارِ»[1].. فدور القاضي يأتي متوسطا بين مستوىٰ التشريع، وبين مستوىٰ التنفيذ، لأنه ينزل الحكم الذي في التشريع علىٰ واقعه التطبيقي.

فمن علم الحق (حكما / وتنزيلا) وقضىٰ به .. فهذا هو الذي في الجنة. والذي لم يعرف الحق (حكما / أو تنزيلا) وقضـىٰ بجهل .. فهذا في النار. والذي عرف الحق، وقضىٰ بغيره .. فهذا في النار.

انتبه !!.. فما عمله قاضيا النار خروج عن طاعة ربنا، لكن هذا الخروج يسمىٰ فسقا ومعصية وظلما، ويسمىٰ أيضا كفرا أصغر .. ولا يسمىٰ كفرا أكبر .. لماذا؟؟.. لأنه لم يعد علىٰ أصـل الطاعة بالنقض .. بل حصـل قدر من المخالفة. وإن كانت المخالفة هنا أكبر من غيرها، لأنها مخالفة في مستوىٰ تنزيل الحكم علىٰ واقعه.

ثالثا: وبما أن الانحراف في القضـاء أصـعب وأشـنع رتبة من المخالفة التي يفعلها الإنسان الفرد في طاعته ومعصيته الفردية، مما لا يتعلق لا بتشريع حكم ولا بتنزيله، بل تتعلق بممارسـة الفرد، فنجد أن الانحراف في التنفيذ معصـية أقل من

1- صحيح، رواه أبو داود (3573) وغيره عن بريدة بن الحصيب الأسلمي ﷺ.

معصـية القاضـي، فتكون معصـية وظلما وفسـقا، لكنها لا تكون كفرا، لا أكبر ولا أصغر، في رتب هي كلها خروج عن طاعة ربنا.

ففي الطاعة أ صل، وفيها ما يتفرع عن هذا الأ صل، وفيها فرع أقرب للأ صل فيتوسـط بينهما،.. وكل رتبة لها حكم مناسـب لها. فالشـيطان لما لـم يسـجد لآدم كفر.. لماذا ؟؟.. بينما آدم لما أكل من الشـجرة عصـىٰ؟؟.. ألم يخالف كل منهما أمر الله؟!.. لكنهما لي سا سواء .. فال شيطان قد ردّ أمر ربنا، والرد كفر، لقد قال له: ﴿أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[1].. وأي مخلوق يرد أمر ربنا يصير كافرا، وليس هذا مختصا بالشيطان.

لذلك نجد في سورة الأنعام لما ذكر ربنا ﷻ حكم كل من الميتة والذبيحة، فإن الكفار قالوا مستنكرين: الميتة التي يميتها ربنا تكون نجسة وحراما.. والذبيحة التي يميتها الإنسان ويذبحها تكون طاهرة وحلالا.. هل أنتم أفضل من ربكم؟؟!!.. إذا كان ا لذي يميته العبد طاهرا وحلالا، فا لذي يميته الرب ينبغي أن يكون أ حل وأطهر!!

وهذه طريقتهم دائما .. فظاهر الكلام أنهم يريدون أن يعظم ربنا ﷻ وحقيقته أنه يـسيء لربنا .. فكأنهم يقولون له ﷻ : أنت لا تعرف كيف تعظم !!.. فنحن نقول

1- [الأعراف - 12].

لك: ألغ كلا مك .. و خذ كلامنا نحن. لذا قال ربنا: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾[1].. أطعتموهم في ردّ حكم واحد لله، الذي حكم بتحريم الميتة، فإن ربنا لا يعظم بأهواء البشـر، بل هو ربك الذي قال لك كيف يعظم، ووظيفتك كعبد أن تطيع ما قاله لك .. لا أن ترد عليه كلامه. فالرد لا يكون إلا نقضا للإيمان، وهذا حكمه الكفر وليس حكمه الإسلام، ولا حتىٰ العصيان.

مقارنة بآدم عليه السلام الذي خالف الأمر .. خالف وهو مقر علىٰ نفسه، أن الأصل عنده أنه عبد مطيع، وأنه خرج عن الطاعة الواجبة عليه .. لذا قال آدم عليه السلام لما أفاق من معصيته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾.. فالظلم من عندي، والخير من عندك ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[2].. فأعطىٰ الله له الخير من عنده ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾[3].

أما الشـيطان فقد ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾[4].. كأن الغواية قد جاءت من عند الرب، وهو علىٰ أكمل حال، وكيف يؤمر بهذا وهو أحسن من آدم؟!.. فكم من إنسان الآن يمكن أن يفعل ما يفعل الشيطان .. ويقول ما يقول الشيطان!!.. إن من يعمل مثل الشـيطان يكفر كما كفر قطعا .. لذا قال ربنا سبحانه وتعالى إن هناك شـياطين من

1- [الأنعام - 121].

2- [الأعراف - 23].

3- [البقرة - 37].

4- [الحجر - 39].

الانس: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾[1] فهناك مشـاكلة في الاسـم والوصـف، وهناك تبادل للخبرات بين الاثنين، وهناك شياطين إنس متفوقون ومبدعون .. كالشاعر الذي قال:

[وكنت امرءاً من جُندِ إبليس فَارتَقَىٰ بِي الحَالُ حَتىًّ صَـارَ إِبلِيسُ مِنْ جُندِي]..!!

أرجع مرة أخرىٰ وأقول: إن كل مسـتوىٰ من مسـتو يات الطا عة له حكم مختلف، وبالتالي ما يقابل كل مسـتوىٰ له حكم مكافئ. ثم إن الشـرع نفسـه وهو يذكر ق ضية التوحيد وق ضية الت شريع من قول يو سف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾[2] .. هو يوسف الذي قال ربنا عنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾[3].. يعني: في شـرع الملك. لأن يوسـف قال لهم: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾؟[4].. فهو قد أخذ أخاه بشـرع ربنا الذي عند بني إسـرائيل، ما أخذ أخاه بقانون وشرع الملك.

1- [الأنعام - 112].

2- [يوسف - 40].

3- [يوسف - 76].

4- [يوسف - 74].

وإنما استحضرنا هذه الآية حتىٰ لا يقول أحد: إن يوسف عليه السلام كان ممكنا، فكان يقيم شرع ربنا. بل كان الملك كافرا، وكانت الحكومة كفارا باستثناء يوسف، والشعب كذلك كان كافرا، ويوسف وبنوإسرائيل هم المؤمنون. فهل كان يقيم شرع الله عليهم كلهم؟!.. لقد كان هناك شرع للملك، ويوسف النبي وزير في حكومة الكفار، وهو لما أخذ أخاه أخذه بشرع الله، وامتن الله عليه بذلك، مع أن الملك كان له شرع موجود ونافذ حينها، ويوسف عليه السلام لم يقدر أن يغيره، كما لم يقدر أن يحولهم إلىٰ الإيمان، بل فعل ما يقدر عليه.

النقطة الهامة: هل وجوده مع ملك وحكومة ولهم شرع في ظل الكفر .. هل كان مقرا بالكفر؟؟.. لا .. قطعا .. معاذالله. ولا تلازم بين وجوده شريكا في الحكم، في دولة كافرة لا تحكم الشريعة، وبين إقراره بحق التشريع لغير الله، إلا عند من لم يفهم تفاوت المستويات وأحكامها.

قد يقال: كلامك فهم، وقد نختلف في الفهم. فنقول تنزلا: إذا كنت تستدل بكلام علماء مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، حين تكلم عن توحيد ربنا وطاعته، وكيف أن الإسلام هو إخلاص الاستسلام لله. وأن الذي يستسلم لله ولغيره مشرك، وأن الذي لا يستسلم له مستكبر، وأن كلا من المشرك والمستكبر كافر بالله. فإنه هو نفسه الذي قال هذا الفهم، ولم ير بينهما تناقضا. فلم يعتبر أنه لما فهم أن يو سف

عليه السلام عمل ذلك، يكون قد ألغىٰ قضــية إفراد الله عز وجل بالتشــريع، بل إن كثيرين ممن تكلموا في قضية توحيد التشريع وبينوها، كانت لهم آراء قريبة مما ذكرنا، كما سبق.

لقد كان أهل الســنة دائما هم أهل التأصــيل والتفصــيل، أهل الإيمان بالوحي كله، بخلاف غيرهم ممن ضل في قضايا التوحيد وغيرها، ممن استحسن فهمه، ولم ينزل السابقين منزلتهم، ولم يتسع فهمه لما اتسع له فهمهم، فأساء وهو يحسب أنه يحسن صنعا، وكانت آراؤه حاملة لأهوائه، والموفق من وفقه الله سبحانه وتعالى.

وإنما نتكلم هنا عن قواعد، لها صلتها بمعركة التغيير في واقع أمتنا، فنرجو أننا إذا أحسنا فهمها بشكل سليم، أن تفتح لنا أبوابا لفقه دين ربنا عز وجل للنظر في واقعنا، وللعمل علىٰ إصــلاحه، حتىٰ نكون مقوّمين لحركة التغيير في الواقع، ونقوم بما يجب علينا منها لله، ولأجيال أمتنا القادمة.

القاعدة العاشرة: عدم التغيير إعانة لأهل الباطل

لأن ترك التغيير معصــية تســتدعي العقوبة، وتتنوع هذه العقوبات ما بين عقوبات شــرعية وعقوبات كونية. فإن ربنا ﷻ لما أخبرنا عن عدم إهلاكه للقرىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ قال بعدها: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1].. فالصلاح وحده لا يكفي، ولا يمنع الهلاك، بل لا بد من الإصلاح.

وعندنا في حديث السـفينة، قول النبي ﷺ: «فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»[2].. فعدم تغيير الباطل هو مسـاعدة لأهل الباطل، لأنه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[3] سيظهر الفساد .. والفساد سيستدعي العقوبات.. الشرعية منها والكونية.

حتىٰ التغيير بالقلب له لوازم، إن لم يقدر علىٰ أكثر منه، كما قال ربنا ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾[4].. مع أن الواجب عليك أكثر من مفارقتهم، لكن لو لم تقدر علىٰ أكثر من ذلك، فأقل شــيء أن تفارق، كما قال العلماء: إذا لم تزل المنكر، فزل أنت عنه .. فإذا لم تقدر علىٰ أن تغير أي شــيء فيه، فنفس وجودك معه جريمة، لأن

1- [هود - 117].

2- البخاري (2493) عن النعمان بن بشير ﷺ .

3- [البقرة - 251].

4- [النساء - 140].

من غضـــبك وإنكارك القلبي أن تفارقه. فإن لم تفعل، فإن ربنا قال: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾(1).. الكافر هنا من قال الكفر.. والمنافق هنا من قبل الكفر أمامه، فلم يقدر على الرد، ولم يفارق، بل سمحت نفسه به .. مع أنه لو كان قد شتمه أحد، لكان قد انفعل وغادر. فكيف بمن يعتدي على دين ربنا أمامك، ثم أنت لا تعتبر أن القضية توجب حتى.. انصرافك!!

إنك كإنسان مؤمن، فإن أهم وأغلى وأحب شيء عندك هو .. ربك ﷻ ورسوله ﷺ ودينك الذي رضـيه الله لك - الإسـلام - .. فعلى الأقل .. تغضـب لهم، وإذا غضبت ولم تقدر على أكثر من المفارقة، فهي واجبة عليك، فإذا تركت هذا التغيير البسـيط جدا، فهناك عقوبة شـرعية مغلظة: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾(2).. وهذه عقوبة قاسية جدا، كحكم تم تقريره على المستوى الشرعي.

أما على المستوى الكوني، فأنتم تعرفون قصة القرية التي كانت حاضرة البحر: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(3).. فإن أصـحاب القرية انقسـموا إلى ثلاثة أصناف:

1- [النساء - 140].

2- [النساء - 140].

3- [الأعراف - 163].

[1] قسم ارتكب الحرام.

[2] وقسم أنكر الحرام.

[3] وقسم لم يرتكب الحرام، ولم ينكره.

وما دام عندنا هنا ثلاثة أنواع .. فإننا نتظر أن يكون عندنا ثلاثة أحكام تنزل عليهم. لكننا نجد أن الآيات فيها نهايتان: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[1].. فالمتفق عليه حكم طائفتين:

[1] الذين ارتكبوا الحرام، وهؤلاء قد نالهم العذاب.

[2] الذين أنكروا عليهم، وهؤلاء قد نجوا.

[3] فما حكم من لم يرتكب الحرام، ولم ينكر ارتكابه أيضا؟؟.. إن العلماء قد اختلفوا في هذا الصنف، وعندنا ثلاثة أقوال لأهل العلم في المسألة:

القول الأول: نجوا مع من نجا من الطائعين، لأن ربنا خص العقوبة بالظالمين، وهؤلاء لم يظلموا، لأنهم لم يرتكبوا الحرام.

---

1 - [الأعراف - 165].

القول الثاني: وهذا عليه الأكثر، أنهم هلكوا مع من هلك، لأن ربنا قصر النجاة علىٰ من كان ينهىٰ عن السوء، وهم لم يكونوا من أهل النهي. فهل هم ظالمون؟؟.. قالوا: نعم .. لأن الظلم نوعان، فواحد ظلم بفعل الحرام، وآخر ظلم بإعانة أهل الباطل، حين تركهم يفعلون الحرام. فهل يستوون في العذاب؟؟.. لا، لأن كل إنسان يعذب علىٰ قدر مشاركته في الحرام، ودرجته في الظلم .. لكنهم في النهاية ظالمون. وهذا هو الأرجح من حيث الدلالة.

القول الثالث: إن الطائفة الأولىٰ قد عملت عمال سيئا، فاستحقوا أن يذكرهم ربنا ﷻ بأسوأ صفاتهم ويذكر سوء مصيرهم، حتىٰ يحذر الناس أن يكونوا مثلهم. والطائفة الأخيرة هي طائفة ممتازة، قد عملت عملا صالحا، فاستحقوا أن يذكرهم ربنا بأحسن أو صافهم، وبنجاتهم ومصيرهم، حتىٰ يعمل الناس مثلهم. أما الطائفة التي في الوسط، فقد ألغوا فائدة وجودهم، حيث كان وجودهم وعدمهم سواء.. هؤلاء سكتوا فسكت الله عنهم. لأن ربنا قد أعطىٰ لهم نعمة الوجود، فألغوا هم قيمة هذه النعمة، كأن لم يكونوا موجودين.

ولذلك أخبر النبي ﷺ أن وجود قدر من الصلاح، إذا لم يكفِ لمقاومة الفساد، فإنه لا يمنع العقوبات الكونية العامة في الدنيا، وبذا أجاب ﷺ من سأله

متعجبا: «أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّـالِحُونَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»[1] .. لماذا تركته يكثر؟؟.. إذا كثر الخبث، حصلت العقوبات العامة.

وفي الحديث: يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا ببيْداءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَـفُ بِأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ". قَالَتْ عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قُلْتُ يَا رَسُـولَ اللهِ، كَيْفَ يُخْسَـفُ بَأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنهُمْ،؟ قَالَ: «يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِم وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُون عَلَىٰ نِيَّاتِهِمْ»[2].. فالعقوبة العامة هنا، لم تثبت التســاوي في الجريمة العامة، فلكل نيته، ويتفاوتون في الآخرة، لكن العقوبة الأولىٰ الكونية في الدنيا قد شملتهم.

فلابد أن تمارس التغيير .. أنت لاتمارس هواية في وقت الفراغ، ولا تمارس مجرد فريضـة من جملة فرائض واجبة عليك وفقط. بل أنت تمارس محاولة لإنقاذ نفســك وأهلك وأولادك في الحياة .. في الدنيا والآخرة .. لأن عدم التغيير إعانة لأهل الباطل، وهذه نقطة خطيرة رأيناها في بعض إخواننا في المواطن الشــديدة.. قالوا: إنهم تعبوا ولن يستمروا، لأنه لا يوجد حل مرض، ولا شرعيّ بشكل كامل. وبدأ الشـيطان يزين لهم ترك الطريق، وغفلوا عن خطورة ترك التغيير التي نتكلم عنها.

1- البخاري (3346) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

2- البخاري (2118) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

قد يقال: ألا يكفي أن تنكر مجموعة من المصلحين .. فيسع غيرهم أن يتركوا هذا العمل إلىٰ غيره؟؟.. والجواب: إن هؤلاء الذين أنكروا ما ا ستطاعوا أن يمنعوا المنكر، ولا أن يحققوا مقصود التغيير، فاتسع الواجب ليشمل الباقين، كل بحسب قدرته.

لأنه متىٰ يقال بسقوط الفرض الكفائي؟.. إنه لا يقال بذلك إلا إذا حصلت الكفاية، وإلا بقيت الفرضية، لعدم تحقق الكفاية. فكما يقول علماء الأصول، في التفريق بين فرض العين وفرض الكفاية: إن فرض العين، المقصود فيه أن يوجده كل معين. أما فرض الكفاية، فالمقصود فيه أن يوجَد، بغض النظر عمن يوجده. فالعبرة هنا أن يوجَد، فيكون في حق من فعله مستحبا، ويسقط الإثم عن الجميع.

لكن ما الحكم إذا لم تحصل الكفاية؟.. يقول العلماء: يأثم كل قادر بحسب قدرته. والشاطبي ﷺ يقول كلاما قيما في هذه المسألة (يأثم كل قادر بحسب قدرته) لأن من الناس من يحب أن يخلي مسئوليته، فيقول لك: الحمد لله.. فالعلماء الذين عندهم علم سيأثمون، لأنهم ما قاموا بالواجب عليهم .. ولست منهم. والخطباء الذين كان واجبا عليهم أن يبينوا للناس وما بينوا، سيحاسبون علىٰ تقصيرهم .. ولست منهم أيضا. وأصحاب الأموال الذين كان المفروض عليهم أن يبذلوا منها، سيؤاخذون .. ولست أنا. والأقوياء الذين كان مطلوبا منهم أن

يجاهدوا سـيسـألون .. ولسـت أنا. فليعذب هؤلاء كلهم، لأنهم ما قاموا بالفرض الذي عليهم. ويتوهم أنه هو يسلم من هذه المسئولية الشرعية!!

يقول الشـاطبي ﵀: "لكن قد يصـح أن يقال: إنه واجب على الجميع على وجه من التجوز، لأن القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة؛ فهم مطلوبون بسدها على الجملة:

[1] فبعضهم هو قادر عليها مباشرة، وذلك من كان أهلا لها،

[2] والباقون- وإن لم يقدروا عليها- قادرون على إقامة القادرين، فمن كان قادرا على الولاية؛ فهو مطلوب بإقامتها، ومن لا يقدر عليها؛ مطلوب بأمر آخر، وهو إقامة ذلك القادر وإجباره على القيام بها؛ فالقادر إذا مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر؛ إذ لا يتوصـل إلى قيام القادر إلا بالإقامة من باب مالا يتم الواجب إلا به"[1].

فحاصل كلامه أن الوجوب يتعلق بطائفتين:

1) الطائفة المؤهلة لعمل نفس الشـيء الذي يسـقط الفرض، وهذا ظاهر، لا خلاف عليه.

1- الموافقات (1/ 283 – 284).

2) لكن هناك وجوبا علىٰ غيرهم، ممن يقدر أن يحثهم ويعينهم، فهؤلاء عليهم ذلك، حتىٰ يقيموا الفرض.

فماذا عملت أنت .. للعالم وللخطيب وللغني وللقوي ؟؟.. إنك مطالب أن تحثهم وتعينهم علىٰ القيام بالفرض، أنت مطالب أن تساعدهم علىٰ القيام بالفرض.. وهذا أمر أنت تقدر عليه، وربنا سيحاسبك علىٰ ما تقدر عليه ولم تعمله. وهكذا الكلام في كل ما هو فرض علىٰ الكفاية.. فلا يتوجه الوجوب فقط إلىٰ أصحاب القدرة الظاهرة، بل لا بد لغيرهم ممن وراءهم أن يقيموهم ويعينوهم، وهؤلاء ينالهم قدر من الإثم بقدر ما تراخوا في القيام بهذه الفريضة، لذا كان العلماء يقررون أنه إذا لم تتحقق الكفاية، فإنه "يأثم كل قادر بحسبه" كما سبق.

إن الانسحاب من معركة التغيير الواجبة، خذلان للحق في الأرض، وإضعاف لقلوب المؤمنين، ودعم لوجود وزيادة الباطل في الأرض، وتشجيع لقلوب المفسدين. إن عدم التغيير نقص في الإيمان الواجب، وتفريط في الهداية يخرج صاحبه من الوعد الرباني: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[1].. فيضره ضلال الضال، إذ لم يحقق الهداية بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

1- [المائدة- 105].

إن التقصـــير في هذا الواجب العظيم ســـبب تســـتجلب به العقوبات الكونية العامة، فلن نكون في مأمن نحن ولا أهلونا وأبناؤنا، إلا إذا ســـرنا في هذا الطريق، الذي سـار فيه رسـول الله محمد ﷺ وأصـحابه الكرام رضي الله عنهم، ومن سـار علىٰ درب القوم.. فسوف يلحق بهم يوما ما.


تساؤلات في ظل الاستضعاف

تساؤلات في ظل الاستضعاف

تعيش أمتنا منذ عقود حالة عامة من الاستضعاف، ما بين احتلال أجنبي سافر أحيانا، وآخر مستتر بحكم وكلاء للخارج أحيانا أخرىٰ.

فأمتنا تعيش واقع تعطيل للشريعة، وتغييب للهوية، ومحاربة لطلائع تجديد الدين وتحرير الأمة. فضلا عن حرمان أبنائها من كثير من حقوقهم في حياة حرة كريمة.

ومع محاولات البعث والمقاومة، تلك التي تتعثر كثيرا وتنجح بنسب أحيانا، تلك التي تبذل الأمة فيها خيرة أبنائها مع كل محاولة، تتجدد التساؤلات عن علاقتنا بالواقع، وعن فرصة الضعيف، وأسئلة أخرىٰ .. في حوار واجب، نطلب به مزيد فهم ووعي يثمران محاولات أخرىٰ أفضل من الحركة الإسلامية، لتحقيق مستقبل أفضل لأمتنا كلها.

علاقتنا بالواقع

[1] إن الواقع جزء من الامتحان القدري.

إن الواقع جزء من الامتحان القدري، الذي اختاره الله لك أخي الحبيب، ليرىٰ استجابتك الشرعية. فلا يُقبَل أن تعترض علىٰ الامتحان القدري، ولكن يجب عليك أن تحرص علىٰ المطلوب الشرعي - علما وعملا - بقدر الإمكان.

فإن الإنسان ما جاء إلىٰ الدنيا إلا ليمتحن ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[1] وبالامتحان تتحقق الحكمة الكونية من خلق المكلف، والتي لا تزول عن المكلف إلا بزوال تكليفه أو بزوال حياته الدنيوية كلها. لهذا كان كل ما علىٰ الأرض موجودا لأجل هذا الامتحان ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2] وكان المطلوب الشرعي من العمل الصالح المتضمن للعلم النافع، والذي عليه الامتحان، هو الحكمة الشرعية التي لأجل محبة الله لها كان خلق المكلفين ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

1 - [الإنسان - 2].

2 - [الكهف - 7].

3 - [الذاريات - 56].

والامتحانات الربانية تقوم دائما علىٰ كمال العلم والحكمة والعدل والرحمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1] ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[3] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4] فمن وثق بكمال ربه، وأيقن أن كل قدر بتدبيره، لم ينشغل بالاعتراض علىٰ القدر، بل انشغل بالبحث عما شرعه الله له مما يرضيه عنه في ظل هذا القدر.

[2] دائما .. هناك ما يمكنك فعله.

دائما .. هناك ما يمكنك فعله، ولو بقلبك، أو بقلبك ولسانك إن لم يكن بيدك. لحديث: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[5] وهذا التغيير الإيماني الواجب له قيمته:

فالتغيير باليد .. يحافظ علىٰ الواقع، فيمنع تلويثه.

والتغيير باللسان .. يحافظ علىٰ المبدأ، فيمنع تغييبه أو تحريفه.

والتغيير بالقلب .. يحافظ علىٰ الفرد، فيمنع تذويبه أو استدراجه.

1- [الأنعام - 83].

2- [الكهف - 49].

3- [النساء - 29].

4- [يوسف - 21].

5- مسلم (49) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

أما أن هناك دائما ما يمكنك فعله من رتب التغيير، فلأن أصلها تغيير القلب [وهو: إنكاره] والقلب لا سلطان لأحد عليه، ولا يوجد من يعجز عن الإنكار بقلبه، فهذه واحدة. ثم إن تعليق ما يجب على اللسان واليد من التغيير بالاستطاعة، فاوت بين الناس فيما يجب عليهم، وفاوت بين الأحوال فيما يجب فيها، بحيث لا يخلو مكلف عن واجب يقدر عليه، وهذه ثانية.

وهذا التعامل مع الواقع (المنكر) ليس تنفلا من المؤمن، بل هو واجب عليه بدليل قوله ﷺ في رواية أخرىٰ: «ولَيس وراءَ ذلك من الإيمان حَبَّةُ خَرْدَل» [صحيح مسلم] لمن فاتته كل رتب الإنكار، أي: إنه بتركه كل رتب الإنكار تجاه هذا الواقع محل الامتحان، لم يبق له من الإيمان الواجب عليه في هذه الحال شيء يفعله، بل فاته كل ما وجب عليه في ذلك الموقف.

ثم إن لكل رتبة من رتب الإنكار هدفا تحققه، وذكرت في الحديث الرتب تنازليا بحسب أهدافها من الأعلىٰ إلىٰ الأقل، مع تضمن كل رتبة لما تحتها، بل وبعكس ترتيب التنفيذ - بلا خلاف بين أهل العلم – لأجل التأكيد علىٰ مراعاة أهداف الإنكار.

فالتغيير باليد يمثل أقوىٰ صور تغيير الباطل وإصلاح الواقع، لهذا كان ذكره مقدما علىٰ غيره، مع أنه لا يُلجأ إليه إلا عند استنفاد ما قبله مما هو أسهل منه من

و سائل التغيير. لكن التغيير باليد يحافظ علىٰ الواقع (ليبقىٰ / أو ليصير) كما يجب أن يكون، مع منع لمحاولات فرض لوث الباطل علىٰ وجه الحياة الإنسانية.

والتغيير باللســان الذي يكتفىٰ به حين لا يُقدر علىٰ ما هو أكثر، قد لا يزيل الباطل من الوجود، لكنه يمنع ذلك الباطل من اكتســاب شــرعية الوجود، بل يبقىٰ وجوده محل إنكار، تمهيدا وإعدادا لإزالته في أقرب فرصــة ممكنة. فيحافظ علىٰ مبدأ التفريق بين الحق والباطل، بين المعروف والمنكر، كخطوة لا بد منها في طريق كمال التغيير، وكخطوة تمنع تغييب معر فة الحق بعد تغييب وجوده، كما تمنع التحريف الذي يخلط الحق بالباطل لكي لا يتميزا في التصور، بعد أن لبس أحدهما ثوب الآخر في الواقع.

ويكفي في تقدير قيمة هدف الإنكار بالكلمة، أن تسترخص فيه الأرواح، ويُنال بهذه التضحية أعلىٰ المنازل الإيمانية، منزلة (سيد الشهداء)، ففي الحديث: « سَيِّدُ الشُّــهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَىٰ إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ»[1] فلولا عظيم قيمة ما قام به من تضــحية، وأهمية الأثر المترتب عليها، لما كان فيها مثل هذا الوعد الرباني الكريم.

---

1 - حسن، رواه المنذري في الترغيب والترهيب (3483) عن جابر بن عبد الله ﷺ.

أما أضـعف الإيمان "التغيير بالقلب" فهو وإن كان أضـعف من غيره من جهة الأثر المتعدي، إلا أن له قيمة هائلة من جهة الأثر الشـخصـي علىٰ مسـتوىٰ إيمان الفرد المؤمن، فهو الذي يحافظ علىٰ إيمانه، ويمنع من أن يُسـتدرج إلىٰ باطل ينافي إيمانه – ولو بدرجة من الدرجات – ، أو أن يذوب في واقع يخالف إيمانه لمجرد أنه يحيط به ويخالطه رغما عنه.

فالإيمان قضية حياة، يعيش بها ولها الفرد المؤمن، ومن خلالها يتعامل مع كل امتحان يواجهه في واقع الحياة الدنيا، لتكون الزيادة في أيام حياته زيادة في إيمانه، كما يحب الله خالق الإنسان الذي إليه مصيره.

[3] الهروب من التعامل المطلوب شرعا مع الواقع المنحرف، له صور:

إسباغ الشرعية عليه .. فيهرب من تغيير الباطل، بالانحياز إلىٰ الباطل.

إشـــاعة عدم الاهتمام أو عدم العلم به .. فيهرب من تغييره، بتجاهل وجوده وتغييبه.

الاسـتسـلام للعجز أمامه .. فيهرب من تغييره، بالتعايش معه وبالانشـغالات البديلة.

وهذا تحذير من تصـرف بديل يلجأ إليه البعض مع امتحان الواقع المخالف للإسـلام، فقد يترك المسـلم التصـرف الواجب عليه، ويؤثر أحد البدائل الخاطئة اتباعا للهوىٰ، وتقديما للدنيا علىٰ الآخرة، وإن كسـاه بأكثر من صـورة مزيفة في محاولة لتجميل حقيقته السـاقطة. ومن أشـهر صـور هذا الهروب من الواجب الشرعي:

أولا: محاولة إسباغ الشرعية – ولو بوجه ما – علىٰ السماح بوجود الباطل، سواء أكان ذلك باعتبارات أصلية أو استثنائية. أو باستحضار أقوال لبعض العلماء، سواء أكانت شاذة أو مرجوحة أو صحيحة تنزل علىٰ غير مناطاتها.

إن دعوىٰ القبول الشـرعي بوجود (المنكر) ليسـت مجرد هروب مما (لم يعد مطلوبا بعد القبول، وهو تغييره)، إنما هي انتقال إلىٰ صـف وجوده، وانحياز إلىٰ نصـرة ذلك الوجود، مع ما فيها من تحريف للحقائق، لأجل ما يتوهم من راحة النفس وسلامتها، أو حتىٰ غنيمتها في ظل هذا الخيار المنحرف.

ثانيا: تجنب التغيير بدعاوىٰ انتظار العلم والفهم المطلوبين، لكن ليس لاسـتيفاء العلم والفهم المطلوبين، إنما لأي اهتمامات أخرىٰ بديلة، وظيفتها (الإرضاء النفسي)، ليبقىٰ التعايش من خلال (التسويف) مسكنا للنفوس التي قد تتساءل عن واجب التغيير.

إن تغييب المشـكلة سـلوك له هدفه، حتىٰ لو لم يشـعر البعض بهذا، وهدفه تغييب الحل. فهو نوع من الفرار المبكر من المقدمات للهروب من نتيجتها، تلك النتيجة التي لا يريد أن يتحمل تبعاتها وتضحياتها.

ثالثا: قد يقر البعض بوجود المنكر، وقد يقر بحكمه أيضـا، لكنه يجمع إلىٰ ذلك الإقرار دائما تقريرا آخر، وهو العجز عن تغيير ذلك المنكر. وفي الحقيقة لا مشكلة في أن يعجز أحد عن تغيير منكر ما، لكن المشكلة هي في الاستسلام الكامل لذلك العجز، ليكون في حقيقته عجزا هروبيا.

ذلك أن العجز من الأقدار التي تشـرع مدافعتها، فالمؤمن كما هو مأمور بمراعاة عجزه، هو أيضا مأمور بالسعي في سبيل التخلص من ذلك العجز. و سعيه هذا هو أمارة صدقه في موافقة مراد ربه وحرصه عليه، وإلا كان تقريره لعجزه – مع تعايشـه وانشـغالاته البديلة – مجرد غطاء لاسـتسـلامه، وتمريرا لفسـاد قصـده، وتمويها علىٰ المخدوعين به وبأمثاله.

[4] ما الذي يفعله الضعيف ؟

يفهم بدقة .. فالضعف لا يمنع الفهم.

يشعر بقلبه بمقتضىٰ إيمانه .. فلا سلطان لأحد علىٰ القلب.

يمارس ما يقدر عليه من الفعل .. ولو مع قدر من مشقة، أو مخاطرة محسوبة.

يجعل اتجاه التغيير في الواقع إلىٰ ما هو أحسن، ولو نسبيا .. فهو الفعل المطلوب في الاتجاه الصحيح، حتىٰ لو لم يحقق النتيجة المرضية بشكل كامل.

يسعىٰ لاستبدال أسباب الضعف بأسباب القوة .. فهذا علامة الصدق في التغيير.

ومن هنا يبدأ الحل حقا .. فكل الذين يضعون العراقيل في طريق الفهم، وكل الذين يشغلون طالبي الحل الإسلامي ببدائل تحول بينهم وبين سبيل الفهم، هم يحولون بينهم وبين شيء يقدر عليه الضعفاء، وهو أول طريق التغيير، إنه فهم المشكلة والحل، والطريق، والكيفية ...إلخ.

والفهم عند الأسوياء يثمر أصدق المشاعر، فتكون دافعا محفزا لبداية التغيير. وبهذا نكون قد أحيينا قضيتنا، أو إن شئت فقل: أحيينا قلوبنا بقضيتنا، وحققنا أول وأضعف إيماننا الواجب علينا تجاه واقعنا، إذ نكون في رتبة (التغيير بالقلب)، وهي الرتبة التي لا يعجز عنها مكلف، لكنها الرتبة التي يفرط فيها الراكنون إلىٰ متاع الدنيا الزائل.

وذلكم الدافع الشعوري هو المحرك الحقيقي لكل فعل يدخل في نطاق القدرة الواقعية، بل إنه يمثل صمام أمان من أوهام المرجفين التي تبالغ في تصوير العجز

بسبب ضعف الإرادة نحو العمل. فبذل الممكن من الاستعداد علامة صدق الإرادة وإلا كانت غرور نفس ودعاوىٰ كذب ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾[1].

وليس من شرط الممكن كمال الأمن وعدم المخاطرة وإلا ما شرع الجهاد في سبيل الله، مع ما فيه من مخاطرة بالنفوس وتضحية بالمحبوبات، حتىٰ قال الله عنه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٌ لَّكُمۡۖ﴾ لما فيه من مخاطرة وتضحية، لكن الأمور لا تقاس بهذا الميزان لأنه﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[2].

مع تقرير أن المثالية المطلوبة شرعا ليست شيئا مغايرا للواقعية، بل هي مثالية واقعية، من خلال أمرين:

أولهما: الحرص في الحال علىٰ أمثل ما يمكن، ولو لم يكن هو الهدف المرضي نهائيا، ويكون ذلك هو المشروع باعتبار هذه الحال كاستثناء، دون أن يكون هذا هو المشروع في الأصل [باعتبار تقييد كل مطلوبات الشرع بالقدرة عليها].

1- [التوبة - 46].

2- [البقرة - 216].

ثانيهما: الحرص في المستقبل على تحسين هذا الأمثل واقعيا، وتقريبه باستمرار إلى الهدف المرضي نهائيا، لبقاء واجب التغيير مع بقاء بعض المنكر، وعدم زوال ذلك الواجب بالكلية إلا بحصول كل المعروف الواجب الذي يحبه الله ورسوله ﷺ [وهكذا يتعامل مع كل حالات الاضطرار في الشريعة حتى تزول الضرورة].

وما سبق يتضمن سعيا دؤوبا في التقلل من أسباب الضعف، وفي التزود من أسباب القوة، ليقل ما يعجز عنه المؤمن مع الوقت، ويزداد ما يقدر عليه. وهذا علامة صدقه في طلب مراد ربه، وعدم وقوفه مع أي مرحلة قبل ذلك، إذ ذلك الوقوف لا يكون إلا موافقة لهوى النفس المخالف لما شرع لنا رب العالمين سبحانه وتعالى.

[5] أسباب الثقة في النصر ونجاح التغيير:

الوعد الرباني .. فهذا يقين إيماني.

خبرة التاريخ الإنساني .. فيها إمكان التغيير وحصوله.

اتجاه حركة الإحياء الإسلامي .. فنحن نتقدم مع الزمن.

فإن الإنسان لا يتحرك إلا بأمل في النجاح، إذ اليأس موت للإنسان قبل موت بدنه، أما من يرئ قرب هدفه فإنه تشتد عزيمته في الحركة نحوه. فكيف إذا كانت نتيجة السير يقينا يوقن به المؤمن؟

وإن الوعود الربانية لأمتنا بالنصر، هي وعود صادقة نسير إليها، والمصطفون من الناس هم من يختارهم الله ليكونوا أسبابا في تحقيقها ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، ولا ينكر الإنسان ذلك إلا بمقدار نفاقه أو مرض قلبه ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ﴾ وهؤلاء لن يغيروا الحقيقة الراسخة ولا القدر الغالب، لأنه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

1 – [المجادلة–21].

2– [الأنفال – 49].

وإن خبرة التاريخ الإنساني تعلمنا أن القوة في الدنيا لم تدم لأحد ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]. وتوهم بقاء الأوضاع على ما هي عليه، لا يسيطر إلا مع جهل بالسنن الجارية في الخلق، بعد جهل بتاريخ الأمم والأفراد، وهو من الاستئسار الخاطئ للحظة الراهنة ولمعطياتها التي لا تدوم. ولولا ما ذكرنا لما قامت دول على أنقاض دول، ولما تبادلت الشعوب كلا من النصر والهزيمة، ولما فاز من خسر مرة أو خسر من فاز مرة.

بل أين كانت حركات الإحياء الإسلامي في أول ظهورها؟ وأين كانت الأمة علما وفهما و شعورا وعملا؟ وأين هما الآن [الحركات / والأمة] ؟ إننا مع كثرة ما واجهناه من مصائب ومؤامرات، إلا أننا في الجملة نتقدم بلا شك، على كافة المستويات رغما عن كل أعدائنا (رأسيا / وأفقيا). فكيف لا نثق في أن النصر لنا، وأن تغييرنا لواقعنا سينجح؟

---

1 – [آل عمران – 140].

[6] لكنك مهما بذلتَ من الأسباب الكونية، فإياك أن تعتمد بقلبك عليها.

واعلم أنك تنال بالأسباب الإيمانية (توكل - دعاء - توبة ...) فوق ما يناسب الأسباب الكونية.. فاعمل .. والجأ إلىٰ من بيده الأمر.

لأن الدنيا تجري وفق نوعين من الأسباب:

أولهما: أسباب كونية تترتب فيها النتائج علىٰ المقدمات عادة، وفق سنن كونية أغلبية، وهي أسباب يفهمها الإنسان بالتفكر في أعمال الناس وثمراتها المتكررة، ونحن مأمورون بحسن التعامل معها.

ثانيهما: أسباب شرعية تترتب فيها النتائج علىٰ المقدمات دائما، وفق سنن إيمانية لا تتخلف، لارتباطها بالوعد والوعيد الربانيين، وهي حاكمة علىٰ الأسباب الكونية وسننها، والمؤمنون أخص الناس بحسن التعامل مع هذه الأسباب.

فجدير بالمؤمن أن يحرص علىٰ الأسباب الكونية، لكن مع اعتماد قلبه علىٰ ربه ﷻ ، فالمؤمن ينال بالتوفيق أكثر مما ينال بالتدبير. واستجلاب المعونة الربانية بأسبابها الشرعية له أثر كبير في ردم الفجوة التي بيننا وبين أعدائنا في عالم الأسباب المادية، قال الله لأعداء المؤمنين: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ

شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1] ومن كان الله معه، ما قيمة أي سبب يكون مع عدوه؟

[7] كن جزءا من الحل، ولا تكن جزءا من المشكلة.

كن جزءا من الحل، ولا تكن جزءا من المشكلة .. فابحث عما تفعله، ولا تقف مع ما تعجز عنه.

فمن الناس من لا يزيد المشكلة إلا تعقدا، ولا يزيد العمل إلا تأخرا، يضيف وجوده أعباء إلىٰ الواقع، وينتظر من الآخرين ما يقدمونه من حلول، إن قدموها يوما ما، فإياك أن تكون من هؤلاء.

بل كن مؤمنا حيثما حل نفع، له في كل موطن دور صالح، يساهم في المطلوب بقدر وسعه، لا يبحث عن الجدار الذي يسد الطريق ليقف أمامه، لكنه يبحث عن كيفية لتجاوز عقبته، ولو بالتفاف من طريق أطول، أو بتعلم لصناعة سلم، أو حتىٰ بالبحث عمن يحسن التعامل مع مثل هذه المشكلة، فهو مبارك حيثما كان.

[8] ليس هناك سعي صحيح يضيع، وإن لم ننل به هدفنا العاجل.

ليس هناك سعي صحيح يضيع، وإن لم ننل به هدفنا العاجل .. فلله حكمة بالغة، وإنما نسير للآخرة .. وعطاء الدنيا جزء من الأجر «مَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ

1 – [الأنفال – 19].

تَغْزُو، فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ، وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ وَتُصَابُ إِلَّا تَمَّ أُجُورُهُمْ»[1].

فالدنيا دار للابتلاء، والإنسان مهما بلغ علمه يفوته الكثير، وفي قصة موسىٰ والخضر عليهما السلام كفاية في بيان ذلك، لكن من قام بما يقدر عليه علما وعملا فقد أحسن، وقد وقع أجره علىٰ الله، سواء أتحقق الهدف النهائي المطلوب أم لا.

نحن مطالبون بالسعي الصحيح، الذي يستوفي مقومات النجاح شرعا وواقعا، لكن كمال الحكمة الربانية التي لا نحيط بها قد تكون في تأخير تحقيق بعض الأهداف، فلا يحطمنا ذلك لأننا نوقن أن كل إيمان ينفع ولا يضيع ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[2].

وليس من فاته ثواب الدنيا فقد فاته الثواب، فإن الجزاء مقسم بين الدنيا والآخرة، و ما يفوت في الدنيا لا يفوت في الآخرة، إذ أن كمال الجزاء إنما هو في الآخرة، وفي الدنيا منه البداية فقط التي يحتاج إليها الناس، وفق حكمة ربنا البالغة.

والآخرة هي المستقبل الأبدي الأكيد، الذي تصغر فيه الدنيا بكل ما كان فيها، إذ لا نسبة بين المحدود مهما زاد وبين ما لا نهاية له، ففي الحديث: «يُؤْتَىٰ يَوْمَ

1- مسلم (1906) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

2- [البقرة - 143].

الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَيْ فُلَانُ، هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ، فَيَقُولُ: لَا مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلَاءً، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ: فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فَيُقَالُ لَهُ: أَيْ فُلَانُ، هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أَوْ بَلَاءٌ، فَيَقُولُ: مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلَا بَلَاءٌ»[1]

وهذا ما نسير نحن مع جميع الناس إليه.

[9] نحن متفاوتون .. لنتكامل في الحل.

نحن متفاوتون .. لنتكامل في الحل، ولنغطي بمجموعنا مساحة الخلل الواسعة. فتفاوتنا مزية .. من خلاله نقدر على شمول التغيير.

فاختلافنا مزية لنا، وليس عيبا فينا، إذ ليس المطلوب منا أن نكون نسخا مكررة من شكل واحد كما يتوهم البعض، فتكرار النسخ البشرية هو خلاف سنة الكون ومراد الشرع جميعا. والله حين فاوت بيننا لم يجعل المطلوب منا واحدا، بل هو متفاوت بتفاوتنا، ليتحقق كمال المطلوب من مجموع من طلب منهم، وهذه هي فكرة (الفروض الكفائية) التي يسد فيها بعض القادرين حاجة يكفون فيها بقية المجموع.

---

1 – صحيح، رواه ابن ماجه (3506) عن أنس بن مالك ﷺ.

وإنما يجب علىٰ المؤمن - بعد فروض الأعيان المشتركة - ما يسده ولا يسده غيره، والناس قد خلقوا يحتاج بعضهم لبعض، لا تقوم مصالح دينهم ولا دنياهم إلا بذلك. فالموفق من قام بما يحسنه، وا ستعان بغيره للقيام بما لا يحسنه. وكلما اتسعت الخروق وتنوعت، كانت الحاجة أكبر إلىٰ أعداد متنوعة كذلك ممن ينتصبون لسدها كلها.

[10] خُلِق كل إنسان لدور.. ويقاس نجاحه بأن يؤديه.

خُلِق كل إنسان لدور .. ويقاس نجاحه بأن يؤديه .. وهكذا يُحاسَب الناس في الآخرة.

وأنت أخي الكريم، مهما كان تقديرك لنفسك، إنك ما خلقك الله إلا لتؤدي دورا في هذه الحياة، دورا لا يؤديه غيرك إلا بتفريطك أنت فيما خلقت له. فاعرف دورك، وانتصب لتحقيقه، واعلم أن نجاحك في توفية هذا الدور هو مقياس نجاحك في حياتك، دون غيره من الأدوار مهما بدت براقة.

وحين تقف غدا بين يدي الله، سيحاسبك علىٰ ما أديته من الدور الذي هيأك له، فأعد للسؤال جوابا، ولا يشغلك ما لن تسأل عنه عما ستسأل عنه وحدك.

[11] مَن لا يمارس الأدوار الصغيرة .. لا تنتظر منه أن يمارس الأدوار الكبيرة.

إذ تقوم الأعمال الصالحة علىٰ قاعدة الشعور بالمسئولية، وعلىٰ مراعاة الاحتياجات الواقعية، وليس علىٰ قاعدة الانتقاء الشخصي المبني علىٰ الأهواء الفردية. وهل العبودية إلا تجرد من الحركة تبعا لأهواء النفس، لتكون الحركة تبعا لمراد الرب ﷻ؟

فهؤلاء الذين لا يمارسون أدوارا صغيرة، مع سهولتها، ومع الحاجة إليها، بد عاوىٰ من جنس أنهم ير يدون أدوارا كبيرة، أو أنهم لا تلائمهم هذه الأدوار الصغيرة، أو ما شابه ذلك من أنواع التخلصات والمعاذير النفسية، هم في الواقع غير متأهلين لأي دور علىٰ الحقيقة، وستظل تهرباتهم تلازمهم. فإن فارقتهم وحرصوا علىٰ عمل ما، فو جه التهمة إليهم في ذ لك، وإ ياك أن تأتمنهم وإلا كنت أ نت المخطئ، ومن تبصر في السيرة عرف مصداق هذا الكلام.

[12] مَن لا يغير نفسه .. لا تنتظر منه أن يغير غيره.

فتغيير الواقع تغييرا شرعيا، ليس في حقيقته إلا امتدادا لتغيير النفس، و هل إنكار اللسان واليد إلا تعبير عن إنكار القلب؟ وهل جهاد اللسان والسنان إلا من الارتقاء في جهاد النفس في مرضاة الله؟

فمن عجز عن نفسه، كان عن غيره أعجز. ومن صدق مع نفسه، كان انتظار صدقه مع غيره أقرب. والبدايات عنوان النهايات، فمن وفق في بدايته، كان حسن الرجاء موصولا بنهايته. وإن حقيقة الحياة تدور حول الامتحان بمجاهدة هذه النفس في صور ومراتب متعددة، لذلك ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

1- [الشمس - 9 - 10].

فرصة الضعيف

"إننا أضعف .. وهم أقوىٰ .. إذا ، لا أمل في التغيير"

هل المعادلة في الحقيقة .. بهذه البساطة؟؟ بالقطع لا. ولعل الأمر يحتاج إلىٰ تجديد طرح، نميز فيه بين صحيح المقدمات من زائفها، ونتجاوز صدمة واقع بعينه علىٰ أهله.

إننا نقر أن احتكار القوة بمختلف وأهم صورها (المسلحة / وغيرها)، بالإضافة إلىٰ ممارسة الاستبداد لفترة زمنية طويلة، لا يتيحان فرصة للتغيير، بل يجعلان ذلك أمرا بعيدا عن الخبرة المشاهدة بالنسبة لأكثر الناس.

فإذا أضيف رصيد من الخبرة (خلاصته: البطش بمحاولات التغيير)، وتكررت التجارب القاسية ضد من حاولوا التغيير، وضد أهليهم، وضد حاضنتهم الشعبية الداعمة لهم، فإن ذلك يثمر واقعيا – شئنا أم أبينا – أسوأ النتائج: اليأس، والتعايش.. (اليأس من إمكانية التغيير، والتعايش مع الباطل القائم).

فتكون متلازمة (اليأس / والتعايش) من أكبر ما يمثل – في حقيقته – دعما وحماية لوجود الباطل القائم ولو بدرجات ما، لأنها تقطع طريق التغيير من أوله، بل إنها تقطع حتىٰ أحلام التغيير باعتبارها تروج وهما لا سبيل إليه.

ويبقى السؤال: كيف يسعى (الأضعف) لتغيير (الأقوى)؟

إن أول عناصر الإجابة في ثلاث كلمات تالية:

أولا: [اليقين] بأنه لا وجود للقوة الكاملة المنفردة لدى أي مخلوق (فذلك للرب وحده).

ثانيا: [الوعي] فإنه حيث تضعف قوة الخصم (وجودا / أو تأثيرا) ، سواء أكان ذلك بالاعتبارات (الذاتية / أو باعتبار التوازنات) .. فإننا أمام فرصة.

ثالثا: [الاستعداد] لأن الفرصة لا تساوي الربح، بل تعني: خلخلة تتيح إمكانية الربح، لذلك لا يستثمرها .. إلا من يحوز (استعدادا / ومغامرة).

وستكون هذه الكلمات هي محاور بياننا الموجز في ورقاتنا التالية بإذن الله.

[اليقين]

بأنه لا وجود للقوة الكاملة المنفردة لدىٰ أي مخلوق (فذلك للرب وحده).

هذا اليقين له مقومان:

أولهما: (التوحيد) .. الذي يجعل صاحبه لا يفرد بالكمال إلا رب العالمين، ويمنع من أو هام المشركين التي تلحق بالله غيره في كمال القوة أو الإرادة أو غيرهما. وما كسرت قلوب الناس إلا من جهة ضعف توحيدهم، فألبسوا بعض المخلوقين أثواب الكمال الرباني، كأنهم يعلمون كل شيء، ويقدرون علىٰ كل شيء، أو أن إرادتهم طليقة نافذة بلا قيود، فصار الناس أسرىٰ لأوهامهم تلك. أما الموحد فإنه يقطع قلبه عن تلك التعلقات الباطلة بغير الله، فإن «الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[1]، ويفرد ربه بكمال الثقة والتعظيم والخوف والرجاء. ألم يقل لنا ربنا: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[2] ؟ فإنه ﴿مَّا

1- صحيح، رواه الترمذي (2516) وغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

2- [النحل - 51].

يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1] و ﴿إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾[2].

ثانيهما: (الخبرة) .. التي تدل العاقل علىٰ أن القوة لم تدم لأحد، وأن الأيام ظلت دولا بين الناس، ولو انفرد مخلوق بكمال القوة لما سمح لغيره أن يأخذها منه. لكن التاريخ البشري مليء بتلك المداولات بين أصناف الناس، يستوي في هذا كل من التاريخ القديم والتاريخ المعاصر.

فالتبديل علامة النقص الذي لم يفارق مخلوقا أبدا هما حاز من قوة، ودليل إمكانية التغيير في معادلات الواقع بين مكوناته المختلفة، بل والتاريخ هو سجل المحاولات (ناجحة / وفاشلة) بما يمثل رصيدا عمليا لا يستغني عنه من لا يريد أن يكرر أخطاء الماضي.

ويثمر اليقين أمرين:

الأول: كمال ثقة وتوكل علىٰ الله وحده، فإن الأمر كله بيده، وهو ﷻ نعم المولىٰ ونعم النصير.

1- [فاطر - 2].

2- [آل عمران - 154].

الثاني: أمل يجرف في طريقه كل صخور اليأس التي يزرعها الشيطان وأولياؤه، بل يحطمها واحدة بعد أخرىٰ. وتفاؤل يخترق كل حجب الشـدائد والآلام، فيعين علىٰ المسير مهما بدا طويلا في أعين البعض.

[الوعي]

فإنه حيث تضعف قوة الخصم (وجودا / أو تأثيرا)، سواء أكان ذلك بالاعتبارات (الذاتية / أو باعتبار التوازنات) .. فإننا أمام فرصة.

هذا الوعي له مقومات:

أولا: إن الحركة الإنسانية، هي دائما حركة في واقع موجود، وليست أبدا في فراغ مفترض. لذلك فإنه لا يكفي فيها أبدا تحديد ما تريده، أو حتىٰ تمييز ما يمكن أن تفعله بغض النظر عن المحيط، فأنت لا تعيش وحدك، سواء أكنت فردا أو فئة أو دولة.

بل لا بد من مراعاة ما يمكن بالاعتبارين (الداخلي الموجود / والخارجي المحيط)، إذ بهما كل علىٰ حدة من جهة، ومتداخلين سويا من جهة أخرىٰ، يكتمل التصور الصحيح لما يمكن من احتمالات تحدث، وما يتاح من خيارات تمارس.

ثانيا: الأضعف لا يمكن أن يكون تغييره مع الخصم الأقوىٰ من خلال (حرب صفرية)، يستأصل فيها أحد الطرفين الآخر، لأن ذلك الآخر لن يكون سوىٰ الأضعف، بسبب اختلال ميزان القوىٰ من جهة، وبسبب خصوصيات الحرب الصفرية من جهة أخرىٰ.

وبالتالي، لا بد من تجنب المعارك الصفرية في مرحلة تكون نتيجتها فيها محسومة ضدنا – إلا أن يشاء الله شيئا – ، لأن هذا سيكون سلوكا انتحاريا من الأضعف، لا غير. ولكن الصراعات في هذه المرحلة، إما أن تجتنب بقدر الإمكان، أو أن تكون صراعات جزئية محسوبة، ذات سقف نسبي، لتناسب الواقع في لحظتها.

ثالثا: ويبقىٰ ترقب الحال واستشراف المآل من أهم الواجبات، لأن الأقوىٰ يناله ولا بد في لحظات قدر من الضعف، ولو عن درجة من الممارسات التي يستدعيها الصراع. كما أنه قد يضعفه أقوياء آخرون غيرنا، عن شيء من هذه ممارسات في بعض الظروف.

فتوجد في تلك اللحظات فرصة غالية لتمرير مكاسب للأضعف، لا تتاح له دائما. لأن المكاسب الحقيقية [وليست الهشة] لا بد أن تزيده قوة، وبالتالي تغير من معادلة العلاقة بين الأضعف والأقوىٰ، فيعاد رسم الخريطة وفق المعطيات الجديدة.

فيثمر هذا الوعي:

أولا: تمييز التقدم الممكن في ظل الفرصة الموجودة، مع مراعاة الاحتمالات المختلفة.

ثانيا: الحرص على أحســن اســتثمار للفرصــة، كما يجب العمل على (صناعة/ أو دعم) وجودها، وتكرارها.

ثالثا: إدارة الحركة بصورة (مهدفة / وواقعية) تمنع من إدارة الخصم لها، فإن من لا يدير حركة الواقع يديرها بدلا عنه عدوه.

[الاستعداد]

لأن الفرصة لا تساوي الربح، بل تعني خلخلة تتيح إمكانية الربح. لذلك لا يستثمرها إلا من يحوز (استعدادا / ومغامرة).

هذا الاستعداد له مقومات:

الأول: تجذر (مبدأ التغيير) في الحركة الإسلامية، لتتحرك من منطلقه في الواقع. وعدم الاستسلام (لمبدأ التعايش) الذي يحول الحركة إلىٰ مجرد صمام أمان لواقع منحرف، يعيش فيه (الضعيف) في ظل سيطرة (الخصم الأقوىٰ).

الثاني: استشراف (الفرص المتوقعة) بتنوعها قبل حصولها، وبدرجات احتماليتها المتفاوتة في الظروف المختلفة. وطرح تصورات (الممارسة التغييرية الممكنة) في كل منها. وقيمة ما ذكرنا من الاستشراف والطرح أن يكون سابقا لمرحلة العمل بوقت كاف، لأن من يفهم متأخرا لن يعمل إلا متأخرا، وربما بعد أن تفوت الفرصة. إذ أن الزمن عنصر أصيل في (الاستفادة / أو التضييع) لأي فرصة.

الثالث: ترسيخ (مبدأ التضحية) من خلال (التربية / والممارسة) داخل الحركة الإسلامية، فإن فارق القوة بين (طرفي المعادلة) لا يكاد يتيح مكاسب بلا تضحيات، فمن ليس مستعدا للتضحيات عليه أن ينسىٰ المكاسب، بل سيكون الفتات آخر طموحاته في الحياة.

الرابع: تمييز (المغامرة المحسـوبة) والتي تكون ذات مكاسـب تسـتحق مع مخاطر تحتمل، عن غيرها مما ليس كذلك. فإن الفارق بين المغامرة المقبولة وبين التهور غير المقبول، هو محصـلة العلاقة بين (المكاسـب / والمخاطر). مع لزوم التفريق بين حركة الفئة وحركة الفرد في هذه الحيثية، عند إجراء تقييم لأي فكرة مغامرة (مقترحة / أو منفذة).

الخامس: تجاوز من لا يحسـنون النجاح إلا في (مسـتوىٰ معين) من العمل، مهما كان صلاحهم، لأنهم قد ترسخت عندهم مع الممارسة والزمن تقليدية عقلية، وليس فقط عملية، تكبلهم عن الجديد الذي يجب عليهم، في ظل فرصـة جديدة، تحتاج لقفزة غير تقليدية، وإلا ضاعت.

فيثمر هذا الاستعداد:

أولا: مبادرة في التعامل مع المتغيرات أولا بأول، بما يتجاوز سـلبيات (الجمود/ والتأخر) التي تكررت سابقا، كما أنه يربك الخصم الذي يضطر إلىٰ أن يكون في موقف رد الفعل، ولا ينفرد بإدارة المشهد وحده.

ثانيا: إدارة للحركة تحقق نجاحات في الواقع، في حيز الممكن من الأهداف، فتدعم تلك النجاحات الحركة وتتيح لها نجاحات أخرىٰ أعلىٰ في مراحل تالية، إذ ليس مثل النجاح حافزا لمزيد من النجاح.

ثالثا: تقليل الأثر السـلبي لأي فشـل إلىٰ الحد الأدنىٰ، وذلك علىٰ مسـتويي (داخل الحركة / ومحيطها المجتمعي)، إذ هما يمثلان محل الاهتمام الأول لأي حركة تغييرية، وغيرهما تبع لهما، وليس في رتبتهما. كما أن احتمال الفشل سيظل احتمالا ممكنا لأي حركة إنسانية، فلا بد من مراعاة كل من (نسبة احتماله/ ومستوىٰ تأثيره) في كل محاولة.

[أسئلة وإجابات سريعة]

ألا تدل القبضة الأمنية علىٰ بعد سقوط نظام الدولة؟

لا، لأن القبضة الأمنية آخر ما يزول من نظام أي دولة، فمن ينتظر رؤية انهيار القبضة الأمنية ليرىٰ سقوط نظام ما فإنه لن يرىٰ ذلك إلا بعد نهاية السقوط، وإنما الفضل .. لمن يرىٰ ذلك السقوط من بداياته.

ألا تكفي القوة (العسكرية / والأمنية) في منح الاستقرار لنظام ما؟

لا، لأن لاستقرار التجمعات الإنسانية قوانين لا بد منها، والقوة من أهم عناصر الاستقرار، لكنها وحدها غير كافية، بمعنىٰ أنها قد تصنع واقعا محدودا زمانيا ومكانيا، لكنها وحدها لا يمكن أن تحقق الاستقرارالكافي للتجمع الإنساني.

واعتبر بقوة بروز أنظمة الحكم الشيوعية في الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية، ثم بسرعة تهاوي تلك الأنظمة بنسب متفاوتة بعد عقود قليلة، مع أنها كانت الأشرس علىٰ مستوىٰ (الإدارة بالقوة) .. لكنها لم تستقر.

واعتبر بنموذج (نظام عبد الناصر) الذي بالغ في استعمال القوة، لكنه استمر وامتد من خلال اختراق وتوجيه التجمع الإنساني (المصاحب للقوة).

فالحاصل أن هذه القوة من عناصر الاستقرار، لكنها لا تكفي وحدها لتحقيقه، وقد يكون مجموع العناصر المضادة لها أقوىٰ تأثيرا منها في ظروف معينة.

أليس من يجلس على كرسي الحكم هو الأقوى تأثيرا في البلاد؟

ليس دائما، لأنه في كل تجمع إنسـاني هناك مجموعة من مراكز القوى ولا بد، وهذا قانون ممتد من الأسرة (التي يجلس الأب على كرسيها، لكن الأم تمثل مركزا للقوى، والأبناء يمثلون مركزا أو أكثر للقوى) .. وإلى العالم، مرورا بالدولة والتي تتوزع فيها مراكز القوى بين السـياسـي والاقتصـاي والإعلامي والعسـكري والمجتمعي ...إلخ.

فيكون الحاكم هو الأقوى تأثيرا إذا اسـتطاع أن يجعل أكثر مراكز القوى في كفته، وأن يحسن إدارة العلاقة مع كل منها بما يناسبه، وأن يمنع تعاونها ضده. وإلا فقد يكون في حال صـراع على النفوذ، أو حتى قد يتحول إلى أحد مراكز القوى الأضعف.

هل من دليل وتطبيق على قاعدة (مراكز القوى)؟

دليل ومثال فيهما الكفاية: ..

هل سهم المؤلفة قلوبهم من زكاة المسلمين إلا نوع من إدارة العلاقة مع بعض مراكز القوى (لذلك كان مبنيا على اعتبار قوة تأثيرهم على مسـاحات من الواقع في مقابل قوة تأثير الحاكم .. ولنتذكر أن الحاكم الأول كان ذا قوة خاصـة بوصـفه رسولا لله)؟

وهل أزيح مبارك عن عرش دام استقراره عليه ثلاثين عاما .. إلا لما تعاونت ضده مجموعة من مراكز القوىٰ (المختلفة في أهدافها، فكان للجيش هدف، وللمخابرات هدف، وللإسلاميين هدف، وللعلمانيين هدف، وهكذا ...)؟

وبهذه القاعدة (وما يضاف إليها من قواعد الاجتماع الإنساني) .. تقاس قوة تمكن أي حاكم (علىٰ المستوىٰ الداخلي، والذي هو مفتاح الخارجي).

أليس كل الكفار والمنافقين أعداء لنا، فيجب أن نبادرهم بإظهار العداوة؟

أولا: الأصل عداوتهم لنا، وقد لا يعادينا بعضهم كاستثناء، بل قد يناصرنا لأسباب مختلفة.. [فقد ناصر بنو هاشم النبي ﷺ عصبية، وغيرهم كبعض قريش (بالجوار / أو بنقض صحيفة الحصار) وكقبيلة خزاعة] فهذا موجود لا يمكن إنكاره، بل يجب استثماره.

ثانيا: هناك فارق بين أصل العداوة وبين درجة العداوة، فليس كل من بيننا وبينه أصل العداوة يعادينا بنفس الدرجة، فالعقل والشرع يمنعان التسوية بين المختلفين، بل يفرقان بينهما.

ثالثا: ليس كل من يضـــمر العداوة تكون مصـــلحته في إبدائها، بل قد تكون مصـــلحته في إخفائها، وهذا الإخفاء قد يكون مفيدا لنا وقد لا يكون باعتبارات مختلفة.. وعليه فموقفنا لا يترتب فقط علىٰ كونه "عدوا".

رابعا: قد يكون تألف بعض الأعداء أو مداراتهم (مع العلم بعداوتهم) أنفع للمســـلمين، لعدم القدرة علىٰ تبعات هذه العداوة (داخليا / أو خارجيا) أو لغلبة المصلحة العليا للدين والأمة في ظرف بعينه وإن طال.

خامســـا: تجميع الأعداء (الموجودين / أو الممكن وجودهم)، واســـتنفار المحايدين (الموجودين / أو الممكن وجودهم)، وتفريق الحلفاء (الموجودين/ أو الممكن وجودهم) .. كل ذلك ضد "السياسة الشرعية" و "السياسة العقلية" [حتىٰ لو كان كل من هؤلاء مجموعات من الضـــعفاء، فتجمع الضـــعفاء يقوي، واستنفارهم يؤثر، وتفرقهم يضعف].

فالخلاصة إذا:

عداوتهم لنا أصل، وغياب إدراكه غفلة.

عدم عداوة بعضهم استثناء مفيد، وإنكار وجوده مكابرة.

تمييز رتب العداوة دين وعقل، والخلط بينها جهل وسفه.

إظهار العداوة لأي أحد لا يكفي فيه اســتحقاقه لذلك، بل اعتبارات القدرة والمصلحة حاكمة، وتجاوز تلك الاعتبارات حماقة تدفع بسببها الأثمان الباهظة.

من يريد النصر، لا بد أن يحسن إدارة العلاقة مع كل من الحلفاء والمحايدين والأعداء، وإلا فالهزيمة أقرب له من النصر.


غزو من الداخل

غزو من الداخل

أمتنا الحية تنهض، تحاول أن تستعيد حريتها وريادتها، في ظل أعداء متربصين، ووكلاء متسلطين، مع ميراث ثقيل من ضعف عام، وتمزق متزايد، لكن قلب الأمة النابض ورائدها الصادق مازال يتقدم .. إنها الحركة الإسلامية علىٰ خط المواجهة.. ضد الغزو .. من الخارج، ومن الداخل.

[1] الصراع حول (الإنسان)

أمتنا تتعرض لغزو من الخارج، هذه حقيقة لا تدخل في دائرة النقاش، فمن احتلال واقتطاع لأجزاء من الأمة، إلىٰ تبعية سياسية للخارج المعادي، واستنزاف اقتصادي يحرم الأمة من حسن الانتفاع بمواردها .. كل ذلك يحصل منذ قرون، ولا يزال.

لكن الغزو الأخطر علىٰ الإطلاق هو غزو (الإنسان المسلم)، لأن الإنسان هو ركن الأمة الأساس، وكل الباقي تبع له. فهو يقدر أن يغير معطيات الواقع، ويدير دفة الصراع، ويحول الهزيمة إلىٰ نصر .. والتاريخ شاهد.

لذلك كان ولا يزال الصراع الأهم (علىٰ الإنسان المسلم). إذ بدأ الإسلام تغييره للحياة بتغيير (ناس) بهم تغير وجه الحياة علىٰ الأرض لفترات من الزمن. وكرر المجددون عبر الزمن إحياء الأمة، من خلال (إحياء الناس) [ولو بطرق مختلفة، وفي مجالات متنوعة].

وإذا كانت أمريكا اليوم تتزعم أكثر العالم، وتدير المعركة للسيطرة علىٰ أمتنا، فإنها عبر (عولمة محاربة الإرهاب - كما تدعي -) توجه دولا وأجهزة كاملة في التعامل مع الأمة المسلمة، وتطور أساليبها وخياراتها باستمرار ، في غزو الأمة المسلمة من داخلها ، لتتواءم مع المستجدات ، وتستشرف المستقبل وتساهم في صنعه ، سعيا للسيطرة عليه.

من بين تقارير (مؤسسة راند) الشهيرة، والتي تساهم بقوة في صناعة القرار ضد الحركة الإسلامية المعاصرة، يتميز تقرير (الإسلام الديمقراطي المدني) عام (2004 م.)، إذ يكاد يشكل تأسيسا، بنيت عليه التقارير اللاحقة.

كيف قسم أطياف الأمة؟

لماذا قرر معاداة الحركة الإسلامية؟

ما الخطة التي طرحها، ونفذت في الماضي القريب؟

هل لهذه الخطة امتدادات حالية؟... وأسـئلة أخرىٰ، وإجابات عنها فيما يأتي بإذن الله ..

[2] أطياف الأمة في (الصراع)

إن ما يستوقفنا في تلك (الدراسة التشريحية) لأمتنا المسلمة، هو وضوح التصنيف التالي:

أولا: العلمانيون والحداثيون، هم النموذج الغربي في بلادنا، ولا يوجد نموذج آخر مرضي عنه تماما منهم (في المنتسبين للإسلام).

ثانيا: الحركة الإسلامية بأطيافها هم النموذج المرفوض والمعادىٰ، مع أنه من المهم بالنسبة لهم الحرص علىٰ (تمزيق الحركة / وتكسير بعضهم ببعض) بقدر الإمكان، مادامت الحركات موجودة.

ثالثا: عموم الأمة، وهم لا يتبنون (العلمانيين والحداثيين) إلىٰ الآن، وليس هذا منتظرا منهم في المستقبل القريب. بل هم في الجملة أكثر (قبولا / واستعدادا للانتقال أو الدعم) للأطياف المختلفة للحركة الإسلامية.

وترتب علىٰ هذا الوضوح والواقعية في قراءة أطياف الأمة ما يلي:

أولا: إن الحركة الإسلامية بأطيافها هم قلب الأمة النابض، ورائدها الذي تنحاز إليه، وهم الطرف المقابل للغرب ولأتباعه من (العلمانيين والحداثيين).. فالمعركة علىٰ الحقيقة معهم ولو بأشكال ورتب متنوعة.

ثانيا: لا يمكن الاكتفاء بدور (العلمانيين والحداثيين) لـ ضعف قبول المجتمع المسلم لهم حتىٰ الآن، وإن كان من المهم بالنسبة للغرب (دعم/ وتطوير/ وتمكين) مشروعهم في الأمة، طمعا في إعادة تشكيل عموم الأمة.

ثالثا: من المهم البحث عن بديل للحركة الإسلامية ينازعها (الشرعية/ والتأثير) داخل المجتمع المسلم، في المدىٰ الزمني القريب، ليتم تهميش تأثيرها في الأمة، لصالح العلمانيين والحداثيين المدعومين من الخارج.

لماذا قرروا معاداة الحركة الإسلامية؟

ما الخطة التي طرحوها، ونفذت في الماضي القريب؟

هل لهذه الخطة امتدادات حالية؟... وأسئلة أخرىٰ، وإجابات عنها فيما يأتي بإذن الله..

[3] أسرار العداوة مع (الحركة الإسلامية)

إن خيارات مثل (ضرب بعض الإسلاميين ببعض) والذي تبنته أمريكا وبريطانيا و شركاؤهما في الحرب على الإسلام، لا ينبغي أن يفهم منه رضاهم عن بعض الإسلاميين مقابل عداوتهم للبعض الآخر، إذ هو مجرد استغلال مؤقت لحالة التفرق لدى الإسلاميين [وهذا التفرق له أسبابه المفهومة بدرجة من الدرجات] أو إن شئت فقل إنه خطوة على طريق العداوة مع كل الإسلاميين.

ولا زال السؤال يفرض نفسه: ما أسرار العداوة مع كل الحركة الإسلامية؟ ولماذا لا يقبلون بعضها؟

إن الإجابة نجدها واضحة في تقرير راند (2004م.) المشار إليه سابقا، وفي غيره كتقرير راند الذي جاء بعنوان (بناء شبكات إسلامية معتدلة) في عام (2007م.) وفي غيرهما، تتلخص فيما يلي:

أولا: إن تحكيم شريعة الإسلام وإقامة الخلافة الإسلامية كنظام للحكم هما أكبر أهداف جل الحركة الإسلامية المعاصرة بأطيافها.

ثانيا: كما أن استعادة الهوية الإسلامية التي تميز أمتنا، وتقطع تبعيتها للغرب (سياسيا / واقتصاديا / وثقافيا) يعد جزءا أصيلا من رسالة كل الحركة الإسلامية.

ثالثا: أما (تحرير فلسطين) ومن ثم كل ثغور الإسلام المحتلة، فهو الهدف الذي تفهمه وتتبناه كل أمة الإسلام، وفي طليعتها كل الحركة الإسلامية، فهذه أوضح وأكبر معارك الإسلام اليوم.

إنهم يريدون (إلغاء لحاكمية الشريعة) و (تذويبا لهوية الأمة) و (قبولا باحتلال فلسطين).. وهذا ما لا تستطيع أي حركة إسلامية حقيقية [أي: ليست مصنوعة علىٰ عينهم] أن تقدمه لهم، وإلا فقدت شرعيتها فورا.

إنه لا يفي بطلباتهم تلك إلا وكلاؤهم من العلمانيين والحداثيين في أغلبهم.. وهم لا يقدرون أن يكونوا بديلا عن الإسلاميين اليوم في التأثير علىٰ الأمة.

فما الحل السريع؟

الخطة التي طرحوها، ونفذت في الماضي القريب؟

هل لهذه الخطة امتدادات حالية؟... وأسئلة أخرىٰ، وإجابات عنها فيما يأتي بإذن الله..

[4] من (البديل) عن الحركة الإسلامية ؟

إن عموم المجتمعات في واقع أمتنا المسلمة لهم ولاء للإ سلام، وبالتالي لهم ولاء لمن يرفع راية الإسـلام ويتحرك بها. ومع سـعي الأعداء للتشـويش علىٰ هذا الولاء العام للأمة بالترويج لولاءات أخرىٰ تنازعه (وطنية / أو قومية / أو غيرهما) إلا أن ضرورة المعركة الحالية توجب عليهم حلا سريعا، فماذا يكون؟

تتلخص فكرة الحل السـريع في بديل للحركة الإسـلامية، يسـحب البسـاط المجتمعي من تحت أقدامها، ويجعلها محاصـرة في أضـيق نطاق ممكن، تمهيدا لاستئصالها أو تهميشها بحسب معطيات الواقع.

سمات البديل المقترح:

أولا: أن يرفع راية للإسلام، ليستطيع منافسة الحركة الإسلامية.

ثانيا: أن يكون مفرغا من عنا صر الصراع مع الغرب [والتي سبق ذكر أصولها في كلامنا السابق "أسرار العداوة"].

ولقد وجدوا ذلك البديل ممثلا في فئتين:

الأولىٰ: الصوفية، ذات الر صيد التقليدي الوا سع مجتمعيا كميراث عبر مئات الـ سنين، وذات الر صيد المقبول في التعايش مع العدو والبعد عن عنا صر الـ صراع

معه، وذات الر صيد المعا صر من الخ صومة مع الحركة الإ سلامية (في مجموعها الأكثر).

الثانية: الدعاة الجدد، الذين يقدمون حركة بالإسـلام ذات فعل مجتمعي خيري، لكنها حريصة على أن تكون بعيدة في نفس الوقت عن عنا صر الصراع، بل إنها تطرح تعايشا واقعيا يتطور إلى تعايش فكري مع الوقت [وقد قاموا بكل ذلك].

من (الرموز) الذين قدموهم؟

كيف قدموهم؟ ولمن قدموهم؟

ما الأثر المستهدف من كل من الفئتين؟ ... وأسئلة أخرى، وإجابات عنها فيما يأتي بإذن الله..

[5] خطة حصار الحركة الإسلامية

تم اختيار ودعم (المدرسة الصوفية العلمية) والتي ظهر علىٰ واجهتها العلمية د.علي جمعة، وعلىٰ واجهتها الدعوية ش.الحبيب الجفري، لتعيد المدرسة كلا من (الاعتبار / والانتشار) للتصوف مرة أخرىٰ في قطاعات واسعة من المجتمعات المسلمة.

تلك القطاعات المحبة والموالية للدين بشكل فطري وتقليدي في آن واحد، يقوم التصوف بإشباع احتياجاتها من جهة، ويصنع حاجزا بينها وبين الحركة الإسلامية من جهة أخرىٰ، إذ مثلت تلك القطاعات سابقا البيئة الحاضنة والمغذية للحركة الإسلامية [راجع ما جاء في تقارير الأجهزة الأمنية الناصرية، عن كتاب (قذائف الحق) للشيخ محمد الغزالي].

كما تم اختيار ودعم مدرسة الدعاة الجدد [أخلاق وعمل خيري] والتي ظهر علىٰ واجهتها أ.عمرو خالد وآخرون يتفاوتون قربا وبعدا بالنسبة لخطها المرسوم، فتم إعطاؤهم حرية في الحركة تفتقدها الحركة الإسلامية في ظل الاستبداد، كما تم إعطاؤهم إمكانيات حضور إعلامي مميز، ليقوموا بالترويج لمشروعهم، وببناء مؤسساته وبرامجه علىٰ الأرض.

وخطورة مدرســة الدعاة الجدد كمنت في منافســتها للحركة الإســلامية علىٰ رأس مال وجودها، إنهم الشــباب الجامعي، الذين قد لا يميل أكثرهم للتصــوف، لكنهم يريدون حركة أخلاقية متاحة، تحقق لهم إرضــاء دينيا وإنســانيا (بديلا) عن الذي تقدمه الحركة الإسلامية المحاصرة في ظل الاستبداد.

لقد أكد تقرير راند (2004م.) علىٰ أهمية اســتهداف فئتين من المجتمع (الشباب والنساء) باعتبارهما الأكثر قابلية (للتأثر / والتأثير) في آن واحد، وللأسف فقد نجحت خطة حصار الحركة الإسلامية بدرجة لا بأس بها في مرحلة ما قبل ثورة يناير، لكن ..

ما متغيرات الواقع التي أثرت علىٰ خطتهم؟

هل لهذه الخطة امتدادات حالية؟... وأســئلة أخرىٰ، وإجابات عنها فيما يأتي بإذن الله..

[6] السلفية بين (الهدم / والتذويب / والسيطرة)

حظيت التيارات السلفية باهتمام خاص في تقارير راند وغيرها، سواء باعتبارهم لها الممثل الأبرز للأصولية الفكرية والأبعد عن الحداثة، أو باعتبارهم لها المنتج الأكبر للجهادية الحركية المعادية للغرب ولأوليائه.

وعلىٰ مستوىٰ الواقع علىٰ الأرض يمكننا أن نميز ثلاثة أدوار كبرىٰ قامت بها ثلاث فئات، لكن من خلال إدارة واحدة، ولتحقيق هدف واحد ضد الحركة الإسلامية:

الدور الأول: هدم الحركة الإسلامية وتفتيتها، وإسقاط شرعيتها في مواجهة العلمانية التابعة للغرب. وقد قام ولا يزال بهذا الدور من عرفوا باسم (التيار المدخلي) الغالي في تبديع الإسلاميين بطوائفهم، والمتفاني في التبعية للأنظمة العلمانية.

الدور الثاني: تذويب الأفكار السلفية القوية، في منتج سلفي لطرح وممارسة (الدعاة الجدد) البعيدة عن كل عناصر الصراع، والمتعايشة مع أعداء الإسلام. وقد قام ولا يزال بهذا الدور من يمكن أن نسميهم بتيار (سلفية الفضائيات) والذي يمثل البديل المتعايش مع العلمانية والمخاصم لأعدائها من الإسلاميين.

الدور الثالث: السيطرة علىٰ الحالة السلفية، واختراق الحالة الإسلامية، بكتلة حركية ذات رموز علمية، لتكون بديلا منافسـا للتيارات ذات الفكر والحركة، وللقيام بإجهاض أي فرصـة قوة للإسـلاميين مقابل العلمانيين. وقد قام ولا يزال بهذا الدور تيار (الدعوة السلفية) السكندري المركز، و صاحب التنسيقات الأمنية المتكررة ضد غيره من الإسلاميين.

كيف أثر ذلك علىٰ التيار السلفي والواقع الإسلامي؟

ما المتغير الذي طرأ علىٰ المشهد؟

ما الامتدادات الحالية لذلك في واقعنا الحالي؟... وأسـئلة أخرىٰ، وإجابات عنها فيما يأتي بإذن الله..

[7] وما زالوا يحاربوننا بـ (البديل)

لقد أثر كل من (الحرية / والصراع) منذ ثورة يناير وإلىٰ الآن علىٰ أكثر الكتلة السلفية السائلة غير المنتمية من عدة جهات:

الأولىٰ: ارتبطت بقضية تحكيم الشريعة ومناصرة أهلها، متجاوزة كلا من تياري (المدخلية/ والسلفية الفضائية).

الثانية: كسرت طوق التبعية لمشايخ (الدعوة الإسكندرانية) بعد ظهور خياناتهم، منذ انحيازهم إلىٰ جبهة الإنقاذ (العلمانية) وإلىٰ الآن.

لكن عودة الاستبداد بقوة أثمر ما يلي:

أولا: ارتفع صوت التيار المدخلي، محاولا استعادة شرعيته [لأنه لا يعيش إلا في ظل الاستبداد] وإن كان ذلك في دوائر محدودة في الجملة.

ثانيا: نشط ورثة السلفية الفضائية، في ظل هامش محدود سمح لهم به، لاستيعاب من يمكن من الساحة الملتزمة بعيدا عن المعركة، ولو بدرجات متفاوتة.

ثالثا: ازدهار البديل الأعلىٰ صوتا في منافذ الإعلام المتعددة، ليعلن مرحلة (ما بعد السلفية) في تطور لا يختلف كثيرا في جوهره عن تطور (الدعاة الجدد) الذين

تبنوا (ما بعد الحركة الإسلامية) وإن كان يحاول أن يتستر بشبهات يزعم بها احتكار فهم العلم.

إن أدعياء (ما بعد السلفية) في الحقيقة ليسوا إلا المروجين الجدد للتعايش مع (الباطل المستبد) باسم (اعتزال الصراع السلطوي) وهم التطور الأسوأ للدعاة الجدد، بعد التطعيم بفقاعات من دعاوى العلم بالتراث وبالفلسفة وبالاجتماع. ليبقى الهدف الواحد (دعم الأنظمة العلمانية) من خلال ضرب وتذويب الحركة الإسلامية من داخلها.

لكننا على يقين أن الله قد أبقى لهم في القدر ما يسوءهم، وعسى أن يكون قريبا.